فى ظلال الهجرة

تأليف

أنور السيد عبد الهادى
العالمية مع إجازة التدريس
فى الشريعة الإسلامية واللغة العربية
ودراسات عليا فى القضاء الشرعى

الطبعة الأولى ١٩٥٩

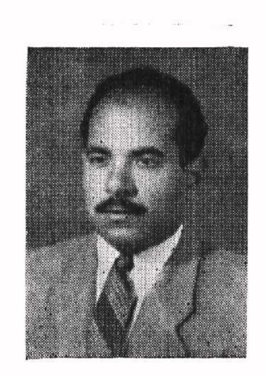
يطلب من الناشر
مكتبة القاهرة
شارع الصنادقية بالأزهر بمصر

مطبعة
محمد عاطف

بسم الله الرحمن الرحيم

إلاَّ تنصروه فقد نصره اللهُ إذ أخرجه الَّذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إنَّ اللهَ معنا ؟

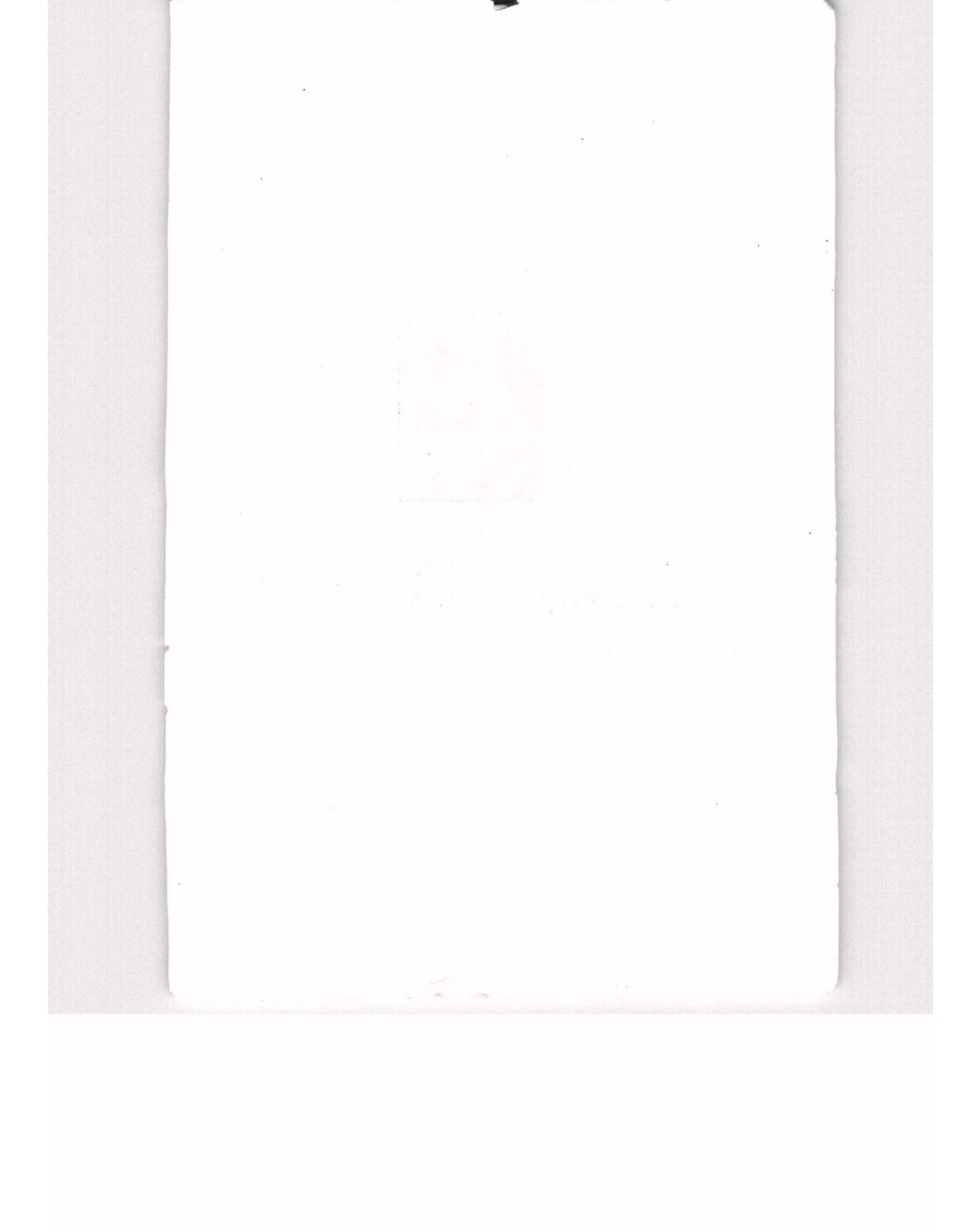
[صدق الله العظيم]



صورة المؤلف

يا هجرة ضاءت الدنيا بطلعتها لقد تركت شماس الشرك متضعا
وصرت ذكرى نحييها ونقدرها فى كل عام وصالا ليس منقطعا

[شاعر]



الإهداء

إلى الباحثين عن حقائق التاريخ .

وإلى الذين اعتصموا بالعلم فخاضوا فى غماره

وأفنوا زهرة شبابهم بين ربوعه .

إلى تلك الشموع التى تحترق لتضىء طريق السعادة

للآخرين . . . .

إلى هؤلاء جميعاً . أقدم كتابى .

« فى ظلال الهجرة »

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

المقــدمة

من اللوازم الأصيلة لأى كاتب أو باحث أو مؤلف فى حالة بحثه موضوعا معينا . لا بد له من دراسة المعالم الطبيعية للمجال الخارجي الذى يحيط بذلك الموضوع . ليكون القارئ على اتصال أوسع بكل ما يمت إلى الموضوع من نواحيه . . ونحن فى بحثنا هذا إنما نحاول أن نشرح الظروف التى تمت فيها الهجرة .. ونحدد بالخطوط العريضة معالم الأرض التى جرت على ثراها أعظم حادثة فى التاريخ . هذا من الناحية المكانية ومن الناحية الزمانية نحاول أيضا أن نكشف عن الزمن الذى وقع فى خلاله ذلك الحادث الذى غير مجرى التاريخ .

ويتطرق بنا البحث إلى شرح الأجواء الغريبة التى عاش فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ... وفى بحثنا هذا . بيان واضح للأسباب التى دعت إلى الهجرة . وكيف أن المسلمين تحملوا كل ألوان العذاب وكيف أن الهجرة كانت سببا فى تدويخ الجبابرة العتاة حينما عاد المهاجرون إلى مكة فاتحين أصحاب نصر مؤزر وفتح مبين ..

فهى إذن حدث تاريخى عظيم . لها قيمتها العليا على مرّ العصور . تجلت فيها كل مظاهر الشجاعة لصاحبها محمد صلى الله عليه وسلم .

والله أسأل أن يوفقنا دائما إلى القول الصادق ...

المؤلف

لمحة تاريخية

لقد تكلمت فى مقدمة الكتاب عن الإشارة إلى أننى سأحدد بالخطوط العريضة إلى البلاد التى كانت مسرحا للهجرة . . وهاك وصفا مجملا عن بلاد العرب أو جزيرة العرب .

وإذا نظرنا إلى الجزيرة العربية من حيث إنها كانت المسكن الوحيد للعرب كلهم . نجد أن هذا القول غير مسلم به عند بعض المؤرخين ... فلقد ذهب بعضهم إلى أنها كانت مأوى لجمهرة من العرب . . وأنه كان هناك عرب آخرون يسكنون فى بلاد أخرى غير جزيرة العرب . . وأضيفت الجزيرة إلى العرب لأنها أول أوطانهم . وفيها معظم مساكنهم . . وفيها نشأت الرسالات السماوية العليا . . وقام من بين رجالها عظماء الدنيا ومنها ظهرت العقائد السليمة التى تآلفت . واتحدت . وأصبحت لها الكلمة الصادقة ... والقوة الوحيدة . التى هزت صروح الظلم والطغيان .

ولهذه الجزيرة العربية ـ أو شبه الجزيرة ـ فالتعبيران صادقان ـ حدودها الأربع .

فمن الشمال نجد بادية الشام . ومن الجنوب يوجد المحيط الهندى . ومن الشرق نرى الخليج الفارسى وبحر عمان . ومن الغرب بالبحر الأحمر . وهى أعلى ما تكون غربا . . هذا الوصف من حيث الحدود التى تفصلها عن جارتها من البلاد الأخرى .

أما من ناحية التقسيم الطبيعى الداخلى لشبه الجزيرة . نجد أنها تنقسم إلى خمسة أقسام : تهامه . الحجاز . نجد . اليمن . العروض .

وكل قسم من هذه الأقسام نجد أن له وصفا طبيعيا آخرا غير كل قسم .

إذن ليست الأقسام متشابهة فى طبيعتها . ومدنها . . تلك هى لمحة تاريخية بسيطة عن الوصف العام لشبه الجزيرة . . وسنتحدث فى هذا الكتاب عن مكة والمدينة فى حالة المناسبة إلى ذكرهما .

موطن العرب

لقد كان العرب أول من سكن شبه الجزيرة . ولذلك سميت باسمهم . ولقد اختلف المؤرخون والباحثون عن تسمية العرب بالعرب . .

فقال بعضهم . سموا عربا نسبة إلى يعرب بن قحطان . جد العرب العاربة فإنه أول من نطق بالعربيـة الفصحى . وأخذها عن أهل اليمن وقيل فى التعليـل ايضـا . سموا بذلك لأنهم لم يزالوا موسومين بين الأمم بالبيان فى الكلام . والفصاحة فى اللسان . والإعراب عما فى الضمير بأبلغ وجه وأوجز عبارة .. وهناك أقوال أخرى يذكرها بعض المؤرخين لا نرى التطويل بذكرها .

والعرب . أمة سامية استوطنت هذه الجزيرة قبل الميلاد بآلاف السنين ولم يستطع أحد من الباحثين عن حقائق التاريخ تحديد زمن هجرة العرب إلى تلك الجزيرة . . وكل من حاول التحديد من المؤرخين لا يخرج عن دائرة الحـــدس والتكهن . من غير أن يكون له سند أو برهان ينهض دليلا على صحته . . . وعلى الجملة فالعرب أمة قديمة العهد لا يزال جيلها متميزا . . ولغتها حية منذ آلاف السنين فيهم من الخصائص والمميزات ماينذر اجتماع مثلها فى شعب من الشعوب .

وللعرب مصادر استقى الباحثون منها حقائقهم ومعلوماتهم . . تلك المصادر منها ما هو عربى . ومنها ما هو غير عربى . فالمصادر العربية هى :

١ — القرآن الكريم : فهو من أقدم المصادر العربية وأصحها . وقد جاء فيه ذكر بعض القبائل البائدة كعاد وثمود . وورد به بعض الحوادث الهامة مثل حادث سيل العرم . وقد جاء ما قصه القرآن الكريم من أخبار الأمم وحوادثها خلوا من المبالغات السخيفة . التى أدخلها اليهود فى أخبار العرب .

٢ — أشعار العرب : لقد ورد فى أشعارهم كل أخبارهم وحروبهم . ووقائعهم وأخلاقهم وعاداتهم .

٣ ـ الآثار الحميرية : فقد كانوا فى صدر الإسلام يقرأون الخط المسند فأتاح لهم ذلك الوقوف على كثير من الحقائق عن ملوك اليمن ودولهم وآثارهم .

٤ ـ أخبار أهل الكتاب بالحجاز واليمن وغيرهما

المصادر غير العربية وهى : ـ

١ ـ التوراة : فقد ذكر فيها شىء من أحوال الأمم العربية . وحوادث ملوكهم وأخبار قبائلهم .

٢ ـ تاريخ بروسوس : مؤرخ الكلدان المتوفى سنة (٣٠٠) قبل الميلاد . فقد ذكر من العرب دولة حكمت بابل .

٣ ـ تاريخ هيرودتس : الرحالة اليونانى « أبى التاريخ » والمتوفى فى أوائل القرن الخامس قبل الميلاد . فقد جاء فى تاريخه الكلام عن العرب . فى أثنـــاء الكلام عن الحروب بين الفرس والمصريين على عهد قمبيز فى القرن السادس قبل الميلاد . .

هذه بعض لمحات من لوازم البحث الوقوف عليها لنستطيع الوقوف على تأصل بعض الصفـــات التى من شأنها التأثير فى الهجرة من حيث القوة والضعف . والرضا والمنع .

البحث الخالد

وحاجة البشرية إلى رسول

عاش العرب فترة من الزمن فى فوضى مستمرة بعد أن تبخرت من نفوسهم كل معانى المحبة والإخاء .

كان العالم كله فى حاجة ماسة لدين جديد بعد أن خفت صوت الرسل السابقين . وضاعت معالم الرسالات الإلهية الحقة التى أرسلها الله لعباده . لافرق فى ذلك بين بلاد العرب موطن بيته الحرام . وبين بلاد الروم المهد الثانى للمسيحية بعد مهدها الأول بالشام ومصر . وفارس . حيث كانت الديانات المانوتيه . والزرارشتيه والمزركيه .

١ – في بلاد العرب : كانوا يعبدون ما ينحتون ، ويصنعون تماثيل وأصنام وأوثان ، ويتخذونها أربابا من دون الله . حتى كان الرجل منهم كما يروى ابن هشام فى سيرته . إذا سافر فنزل منزلا . أخذ أربعة أحجار . فجعل أحسنها فى نظره له ربا . وجعل الثلاثة الباقية أثافى لقدره ... وبلغ من تعظيمهم للأصنام . أن اتخذ أهل كل دار صنما يعبدونه . فإذا أراد الرجل منهم سفرا تمسح به حين يركب فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه إلى سفره ، وإذا أقدم من سفر تمسح به .. فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله .. فلما بعث الله رسوله . صلى الله عليه وسلم . بالتوحيد . قالت قريش « أجعل الآلهة إلهاً واحدا . إن هذا لشيء عجاب » (سيرة ابن هشام) .

٢ – وفى فارس : كانت الديانات التى تسمى بالثنوية . فضلا عن المجوسية التى يجمع فرقها المختلفة القول بإلهية . النور والظلمة . أحدهما للخير والآخر للشر . متعامين . عن أنه ليس هناك إلا إله واحـــد . هو الذى خلق السموات والأرض . وجعل الظلمات والنور .

وكان من هذه الفرق الضالة . المزركية . التى كانت تدعو إلى الإباحية المطلقة .. إذ ذهب مؤسسها « مزرك » فى جرأته إلى أن « أحل النساء . وأباح الأموال . وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم فى الماء والنار . والكلأ » (الملل والنحل للشهرستانى) لهذا لما جاء المغيرة بن شعبة للقاء القائد « رستم » وحاول الجلوس معه على سريره . أنزلوه بالقوة . فقال كما يرويه ابن جرير الطبرى فى تاريخه « كانت تبلغنا عنكم . ولا أرى قوما أسفه منكم . إنا معشر العرب سواء . لا يستعبد بعضنا بعضا . إلا أن يكون محاربا لصاحبه فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى . وكان أحسن من الذى صنعتم . أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض . وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه . ولم آتكم ولكنكم دعوتمونى الآن علمتم أن أمركم مضمحل . وأنكم مغلوبون . وإن ملكا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول ، ومن أجل ذلك نرى المؤرخ توماس الإنجليزى يؤكد أن سوء حالة فارس الدينية والاجتماعية . كان علة ذلك الانتصار الذى حالف الفتح العربى وجعله يظهر فى صورة تخليص الأهلين مما أصبحوا فيه . وما إن تم للمسلمين ما أرادوا على هذا الوجه حتى تنفس الفرس الصعداء ورحبوا بالعرب .

٣ — وفى بلاد الروم والشرق الأدنى : الشام ومصر . كانت المسيحية هذه الديانة السمحة فى أصلها التى تدعو أول أمرها إلى عبادة الله وحده . وما المسيح إلا كلمته ورسوله . قد استحالت بمانالها من تغيير فى أسسها إلى دين معقد ليس إلى فهمه من سبيل .

لقد انقسمت الكنيسة على دينها . وتشعبت إلى أرثوذكسية فى الإمبراطورية الشرقية . وكاثوليكية فى الإمبراطورية الغربية بروما . وكان هذا الانقسام من الخطر وبعد الأثر أن صار لكل مذهب من هذين المذهبين ديانة قائمة بذاتها . فأصبح الخلاف بينهم شديدا والعداء مستحكما . . ومن الطبيعى والحالة هذه . أن يستتبع هذا الفساد فى العقيدة . الانحلال فى الأخلاق . والفساد فى الإدارة والظلم فى المجتمع . .

هذه الوجوه من الفساد . كان لها بلا شك أثر كبير فى تقبل الإسلام فى كثير من نواحى الإمبراطورية الرومانية . .

ويقول أحد المؤرخين الإنجليز :

« كان أئمة اللاهوت فى أفريقية والشام . وفى سائر بلاد المسيحة طبعا — استبدلوا بديانة المسيح عقائد ميتافيزيقية عويصة وكان الناس فى الواقع مشركين يعبدون زمرة من الشهداء والقديسين . والملائكة .

كما كانت الطبقات العليا مخنثة يشيع فيها الفساد ، والطبقات الوسطى . مرهقة بالضرائب . . ولم يكن للعبيد أمل فى حاضرهم ولا مستقبلهم . فأزال الإسلام هذه المجموعة من الفساد والخرافات ، لقد كان ثورة على المجادلة الجوفاء فى العقيدة . وحجة قوية ضد تمجيد الرهبانية باعتبارها رأس التقوى .. ولقد بين أصول الدين التى تقول بوحدانيته أى وحدانية الله وعظمته كما بين أن الله رحيم عادل . يدعو الناس إلى الامتثال لأمره . والإيمان به . وتفويض الأمر إليه . وأعلن أن المرء مسئول . وأن هناك حياة أخرى . ويوما للحساب وأعد للأشرار عقابا أليما . وفرض الصلاة . والزكاة وفعل الخير . ونبذ الخلال الكاذبة والجدل الدينى . والترهات والنزعات الأخلاقية الضالة ، وسفسطة المتنازعين فى الدين وأحل الشجاعة محل الرهبنة . ومنح العبد رجاء والإنسانية إخاء . ووهب الناس إدراكا للحقائق الأساسية التى تقوم عليها الطبيعة البشرية .

هذه بعض الحقائق عن الإسلام . نلمح من بين خلالها أن العالم كان يعيش فى اضطراب مستمر . وخاصة بعد الخلاف الذى طرأ على الديانة المسيحية ..

لقد تبخرت كل الصفات السمحة التى كانت المسيحية تدعو إليها . وأصبح للناس دين جديد . هو دين السيطرة . والقوة . فتقلصت بذلك حياة الضعيف وأهملت كل الحقوق . التى كان يستطيع العيش فى ظلالها هادئا لو كان هناك عدل ونظام .

ولكن كيف يمكن للإنسان الضعيف أن يعيش عيشة الإنسان الكريم . فى ظل تلك المهاترات والمفاسد التى كان يعيش فيها السادة المترفون الذين لا يخضعون إلا لقانون الوحشية والهمجية .

فى خضم تلك المآسى اتجهت أعين المعذبين فى الأرض . إلى سلطة سماوية عليا تخضع لها الرقاب . وتلين لها القلوب . وتضع النظم التى تكفل للفقير . والضعيف حقهما فى هذه الحياة ..

تلك السلطة . هى شريعة سمحة تحدد معالم الأمن والسلام ، والمحبة والإخاء بين سائر البشر .

لم تهمل السماء تلك النظرات الزائغة . ولم يرتد البصر خاسئا . حتى لا يقضى على الأمل الذى علقوا عليه سعادتهم .. هنا .. كانت قصة البعث الخالد . وكانت الحاجة إلى رسول .

استنكر العرب قصة ذلك البعث الجديد لأنهم كانوا مخمورين . تائهين ولِمَ لمْ يستنكروا بشدة ، ويجن جنونهم ، وهم الذين انتهت حياتهم واتجهت دنياهم إلى عكس ما يبتغون على ما كانوا يعيشون ويحيون .

دعوة وبشارة

كانت قصة البعث الجديد مفاجأة مذهلة للعرب . وهم الذين عاشوا فى غفلة وبعد عن تاريخهم . ولو كانوا يعلمون شيئا عن أسلافهم لو أرادوا لما سدروا فى غيهم . فلقد دعا ابراهيم عليه السلام حينما كان يرفع القواعد من البيت مع ولده اسماعيل . داعيا أن يجعل من ذريته أمة مسلمة .. وأن يبعث فيهم رسولا منهم . فيقول الله تعالى : « وإذ يرفع

ابراهيم القواعد من البيت . وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك . وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك . ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم » .

وبشر به عيسى أيضا فقال : « وإذ قال عيسى بن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ، ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد . فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين » والعرب قوم وإن ظهرت فى بعضهم تلك الصفات التى أوردنا . فهم أمة سليمة الطباع .. تتأصل فيهم كل معانى النبل والكرامة . يعيشون فى إطار مزركش بمزايا عديدة منها مثلا . أنهم كانوا يمتازون باستقلال فكرى . وحرية شخصية . يوم أن كانت أمم أخرى ترزح تحت نير الرياستين الدينية والدنيوية . . وكانت تتأصل فيهم حدة الذكاء . واللوذعية ، وكما يحدثنا التاريخ بمثله الكثيرة عن مزايا عديدة . كالقرى . وإغاثة الملهوف . والنجدة والإباء وعلو الهمة . والسخاء . والرحمة والإيثار . كانت كل تلك المميزات تتأصل فيهم . فليس عجيبا أو مستغربا أن يصطفى الله رجلا من الذين زكت نفوسهم . وسمت أرواحهم . وخلصت للسماء قلوبهم .. فكانت بعثته عليه السلام . التى هزت الأركان ودكت صروح الظلم والطغيان . . وأخضعت جباها عاتية . أشاعت الظلم فى جنبات الحياة . واحمرت بظلمهم جوانب التاريخ بدماء الضحايا الأبرياء .

من هو المبعوث

كانت الحياة تسير على هذا الوصف الذى أوردناه . والأيام .. وفى الليلة الثانية عشرة على المشهور من ربيع الأول عام الفيل من ابريل سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشى بمكة . ولد يتيما . توفى والده قبل أن يولد عليه السلام . ولم يترك له من المال إلا خمس جمال . وبعض نعاج وجارية ويروى أقل من ذلك . وفى السنة السادسة من عمره فقد والدته أيضا . فاحتضنه جده عبد المطلب وبعد سنتين من كفالة جده . لحق جده بالرفيق الأعلى . فكفله عمه أبو طالب . فكان

شهما كريما . غير أنه كان من الفقر بحيث لا يملك كفاف أهله .. وكان صلى الله عليه وسلم مع بنى عمه وصبية قومه كأحدهم . على مابه من يتم فقد فيه الأبوين معا . وفقر لم يسلم منه الكافل والمكفول ...

لم يقم على تربيته مهذب . ولم يعن بتثقيفه مؤدب . بين أتراب من بيت الجاهلية . وعشراء من خلفاء الوثنية . وأولياء من عبدة الأوثان . غير أنه مع ذلك كان ينمو ويتكامل . بدنا وعقلا . خلقا وأدبا . حتى عرف بين أهله فى مكة . وهو فى ريعان شبابه بالأمين .

أدب إلهى كريم . لم تجر العادة بأن تزين به نفوس الأيتام من الفقراء خصوصا مع فقر القوّام . فاكتهل صلى الله عليه وسلم كاملا والقوم ناقصون . رفيعا والقوم منحطون . موحداً وهم وثنيون سلما وهم شاغبون .

صحيح الاعتقاد وهم واهمون . مطبوعا على الخير وهم جاهلون وعن سبيله معرضون .

قامت معيشته صلى الله عليه وسلم على الربح الذى كان يأتى نتيجة لعمله فى مال خديجه وتطورت معاملته عليه السلام معها . حتى اختارته زوجا لها . وهى التى جرى لها السادة والعظماء من جوانب مكة وما حولها .

لم تتغير نفس الرسول بعد تلك الزيجة . ولم يسلك ما كان يسلكه مثله فى الوصول إلى ما ترغبه الأنفس من نعيمها . بل كلما تقدمت به السن زادت فيه الرغبة عما كان فيه من حب الانفراد . والانقطاع . إلى الفكر والمراقبة . ومناجاة الله تعالى . والتوسل إليه فى طلب المخرج من همه الأعظم فى تخليص قومه . ونجاة العالم من الشر الذى تولاه .

أم معبد تصف الرسول ﷺ

دخل أبو معبد على زوجته أم معبد . فوجد عندها لبنا . والشاة يومئذ حامل . فقال لها : يا ام معبد . من أين لكم هذا والشاة عازبة ؟ ولا حلوبة فى البيت . قالت : لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت ؛ قال أبو معبد لزوجته : صفيه لى يا أم معبد . قالت :

رأيت رجلا ظاهر الوضاءة . متبلج الوجه . حسن الخلق . لم تعبه ثجله (ضخامة بطنه) ولم تزريه صعله (لم يكن أصلعا) أكحل أزج فى عينيه دعج . وفى صوته صحل . أحور أكحل . أزج أقرن شديد سواد الشعر . فى عنقه سطع . وفى لحيته كثافة . إذا ختمت فعليه الوقار وإذا تكلم سما وعلاه البهاء .. وكأن منطقه خرزات نظم يتحدرك حلو المنطق ، فصل . لانزر ولا هزر . أجهر الناس وأجمله من بعيد . وأحلاه وأحسنه من قريب ، ربعة لا تشنؤه من طول . ولا تقتحمه عين من قصر . غصن بين غصنين فهو أنضر الثلاثة منظراً . وأحسنهم قدراً . له رفقاء يحفون به إذا قال استمعوا لقوله . وإذا أمر تبادروا إلى أمره .

قال أبو معبد : هذا والله صاحب قريش الذى ذكر لنا من أمره ما ذكر ، ولو كنت وافقته يا أم معبد لالتمست أن أصحبه ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا .

وعن الحسن بن على قال : سألت خالى هند بن أبى هالة التيمى وكان وصافا عن حلية رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأنا أشتهى أن يصف لى منها شيء أتعلق به فقال :

كان عليه السلام . فخما مفخما . يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر . أطول من المربوع وأقصر من المشذب . عظيم الهامة رجل الشعر إن انفرقت عقيصته . فرق وإلا فلا

الرسول يتحدث عن نفسه

بعد أن تحدث الناس عن الرسول صلى الله عليه وسلم . وعن الصفات التى ميزه بها ربه . تحدث هو الآخر عن نفسه فقال :

لما نشأت بغضت إلىّ الأوثان . ولم أهم بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين . كان يحول الله بينى وبين ما أريد من ذلك . ثم ماهممت بسوء بعدها أبداً حتى أكرمنى الله برسالته ، ويقول الرسول عليه السلام أيضا قلت ليلة لغلام كان يرعى معى . لو أبصرت إلى غنمى حتى أدخل مكة فأسمر كما يسمر الشباب . فخرجت لذلك حتى جئت أول دار من مكة أسمع عزفا بالدفوف . والمزامير لعرس . فجلست لذلك فضرب الله على أذنى فنمت فما أيقظنى إلا مس الشمس . ثم عرانى مرة أخرى .

ويسأل أبو بكر رضى الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول له :

يا رسول الله . لقد طفت العرب وسمعت فصحاءهم . فما رأيت ولاسمعت مثلك أحد فمن أدبك؟ فقال له الرسول عليه السلام : أدبنى ربى فأحسن تأديبى ..

ذلك النهج القويم من السلوك . وهذا الوصف الطبيعى لحياة الشباب التى عاشها الرسول العظيم . إنما هو تأهيل كبير للنبوة . واستعداد سليم لتحمل أمانة الدعوة .. فهناك إذن أدب إلهى نشأ مع الرسول فى يتمه لحفظه من الدنايا . وعصمه من الخطايا .

دعوة غريبة

سبق أن أشرنا فى وصفنا للحياة عند العرب أنها كانت لا دينية . وذلك فى الفترة التى تعطلت فيها رسالات السماء .. ولما كلف محمد عليه السلام بدعوة الناس إلى دين جديد . كان هذا التكليف غريبا فى نظر بعضهم . وخاصة عظماء قريش وسادتها .. ومما زاد الأمر غرابة . تكليفه عليه السلام بدعوة الناس عامة . دون تمييز أو استثناء بين غنيهم وفقيرهم . قويهم وضعيفهم .. فلا عجب إذن أن تكون هناك معارضة شديدة لتلك الدعوة الجديدة . التى جاءت لتغير كل معالم حياتهم الأولى ..

ومن هنا . كان الصراع عنيفا بين دعوة جديدة أو نظام جديد مثلا يحمل كل معانى الخير والسلام لسائر البشر . وبين حياة همجية لا تخضع إلا للقوة . ولا تلين إلا بالبطش ليضمن السادة والمترفون البقاء فى ظل قوتهم وعظمتهم .. فكان العداء الشديد . وكانت الحرب الضروس على تلك المبادىء الجديدة التى ابتدأت من أول يوم بالدعوة إلى السلام إلى المحبة والإخاء .

« نور فى مسارب الصحراء »

كان للفترة التى عاشها رسول الله صلى الله عليه وسلم أثر كبير فى حياته وذلك قبل تكليفه بالقيام بالدعوة .. فقد اتصفت بالهدوء النفسى . لا تشوبها شائبة اجتماعية من دنايا السادة المترفين وقتئذ : فكان عليه السلام تملأ قلبه عقيدة خالصة تستمد هدايتها ،

من السماء . فكان يذهب إلى غار حراء يتعبد فيه على دين أبيه ابراهيم عليه السلام . ثم يرجع إليه مرة بعد أخرى لمواصلة الهداية الإلهية التى كان يشع نورها بين جنبات قلبه . وطيات فؤاده . عاش عليه السلام فترة من الزمن متصلا بحبل الله المتين . ومتعلقا بخيوط من الأمل فى الله قوية ـ جعلته دائما ينظر إلى مصدر الهداية . ومنبع الرحمة . ومحط الأفئدة إلى السماء التى منها نزل الوحى يترى عليه صلى الله عليه وسلم .

امتلأت قلبه عليه السلام أمنا وإيمانا .. وبينما هو معتكف فى خلوته إذ وافاه جبريل من لدن الحق ليخرج الناس من ظلمات الجهل إلى نور العلم كان ذلك يوم الإثنين السابع عشر من رمضان للسنة الحادية والأربعين . الموافق ثمانية من أغسطس سنة ٦١٠م وكانت سنه عليه السلام يومئذ ٤٠ سنة بدىء الوحى بالرؤيا الصالحة . وهنا تحدثنا أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ـ عن الحوار الذى دار بين جبريل عليه السلام ومحمد صلوات الله وسلامه عليه . كما حدثها بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم .. قالت عائشة:

أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الرؤيا الصالحة فى النوم . فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء ـ فيمكث فيه . وهو الترويد الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله . ويتزود لذلك . ثم يرجع إلى خديجة . فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق . وهو فى غار حراء ـ فجاء الملك فقال له اقرأ : قال : ـ ما أنا بقارىء . قال : فأخذنى ، فغطنى حتى بلغ منى الجهد . ثم أرسلنى فقال اقرأ . قلت ما أنا بقارىء . قال : فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت ما أنا بقارىء . فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى فقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم ـ علم الإنسان مالم يعلم ..

فرجع عليه السلام إلى خديجة يرجف فؤاده .. وبينما هو فى طريقه إليها إذ سمع صوتا من السماء يقول : يا محمد . أنت رسول الله . وأنا جبريل . فوقفت . فرفعت رأسى إلى السماء أنظر . فإذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه . فى أفق السماء يقول : يامحمد . أنت رسول الله وأنا جبريل : فوقفت أنظر إليه فما أتقدم . وما أتأخر . وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء . فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك .

فما زلت واقفا ما أتقدم أمامى . وما أرجع ورائى حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى . فبلغوا أعلى مكة . ورجعوا إليها . وأنا واقف فى مكانى ذلك . ثم انصرف عنى ..

وصل عليه السلام إلى خديجة بنت خويلد . فقال لها : زملونى : زملونى (أى غطونى) فزملوه حتى ذهب عنه الرعب (الخوف) فقال لخديجة :

وأخبرها الخبر ، ثم قال لها أيضا : لقد خشيت على نفسى ، فقالت خديجة : كلا . والله لا يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم . وتحمل الكل وتكسب المعدوم . وتقرى الضيف . وتعين على نوائب الدهر . فانطلقت خديجة به . حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى ابن عم خديجة وكان امرأ تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى . فيكتب من الانجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب .. وكان شيخا كبيرا قد عمى . فقالت له خديجة : ياابن عم . اسمع منى . ثم قصت عليه ما رآه صلى الله عليه وسلم فقال ورقة : والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتينى ياخديجة ليكونن لمحمد شأن كبير .. هذا يا خديجة هو الناموس الذى أنزل الله على موسى . يا ليتنى أكون جذعا . ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك . فقال عليه السلام : أو مخرجى هم ؟ فقال نعم . لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا أوذى ـ أو عودى ـ وإن يدركنى يومك . لأنصرنك نصرا مؤزرا . ثم لم يلبث ورقة أن توفى ...

وهنا يقول ابن جابر الأنصارى محدثا عن فترة الوحى . بينا أنا أمشى إذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصرى . فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض . فرعبت منه ورجعت . فقلت زملونى . فأنزل الله تعالى . يا أيها المدثر قم فأنذر . إلى قوله تعالى : والرجز فاهجر .. فحمى الوحى وتتابع .

صفحات قاسية فى حياة الرسول ﷺ

كان من أمر نزول جبريل عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم . بالوحى أن كلف الرسول عليه السلام بأمر من السماء . أن يدعو الناس إلى دين جديد . ينتظم حياتهم ويدعوهم إلى التآلف فى جو تسوده المحبة . وتظله السكينة .

دعا الرسول عليه السلام . العالم إلى دينه الجديد . سرا . خوفا من بطش المشركين . الذين يمثلون الغلبة فى العرب . والقوة والبطش للخارجين عن سبيلهم . والكافرين بدينهم .

تبع الرسول عليه السلام فى دعوته جماعة سماهم التاريخ الاسلامى بالسابقين الأولين . وفى مقدمتهم . زوجه خديجه . فابن عمه على فزيد مولاه . فأبو بكر .. وكان محببا سهلا .. وكانت رجالات قريش تألفه . فأجابه إلى الاسلام عثمان بن عفان ، وعبدالرحمن ابن عوف . وسعد بن أبى وقاص . والزبير بن العوام . وطلحة بن عبيد الله بن عثمان . وأتى بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأسلموا .

إذن كانت هناك . قلوب متفتحة . وأذان صاغية . وكان لهذا التجاوب المحدود بين الرسول ورجاله الأول أثر كبير فى مضى الرسول إلى غاياته التى اصطفاه الله من أجلها . .

استمر عليه السلام والحالة هذه . والدعوة تسرى سرا إلى القلوب الرطبة التى ضمتها شعاب مكة . . حتى أمر بالجهر بالدعوة قال الله تعالى : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين . . وماكاد الوحى ينزل على الرسول بهذا الأمر . حتى صعد على الصفا . وجعل ينادى : يابنى فهر . يابنى عدى . يابطون قريش . فجعل الرجل منهم إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر الخبر فاجتمعوا له . فقال : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم . أكنتم مصدقى؟ قالوا نعم . ماجربنا عليك كذبا ، قال : إنى رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة ، قال أبو لهب : « تبا لك . ألهذا جمعتنا ؟ » وهزأ به . فنزل قوله تعالى « تبت يدا أبى لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى نارآ ذات لهب . وامرأته حمالة الحطب . فى جيدها حبل من مسد » ثم أنزل الله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين » وهم . بنو هاشم . وبنو عبدالمطلب وبنو نوفل وبنو عبد شمس أولاد عبد مناف . فجمعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لهم : « إن الرائد لايكذب أهله . والله إن كذبت الناس جميعا ماكذبتكم . ولو غررت الناس جميعا ماغررتكم . والله الذى لا إله إلا هو . إنى لرسول الله إليكم خاصة . وإلى الناس كافة . والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون . ولتحاسبن بما تعملون ولتجزون بالاحسان إحسانا وبالسوء سوء . وإنها لجنة أبدآ أو لنار أبدآ » . فلما سمع

القوم بذلك تكلموا كلاما لينا . فقام أبو لهب . وقال : شد ما سحركم به محمد صاحبكم . خذوا على يديه قبل أن تجتمع العرب عليه . فإن سلمتوه إذن ذللتم . وإن منعتموه قتلتم .. فمانعه فى ذلك أبو طالب . وقال والله لنمنعه مابقينا .. ثم انصرف الجمع . وظل أبو طالب بجانبه يحدب عليه ويزود عنه .. وهو ماض على أمر الله . لايرده عنه شىء . . . بوادر من الألم تظهر أمام الدعوة ، ومعارضة شديدة تبدو فى الأفق . إذن لا بد من التحمل . حتى يحقق الرسول . ما تصبو إليه نفسه . ويتجه إليه فؤاده .

تفنن القوم فى كيفية الايذاء . فكان إذا مر عليهم . يقولون مستهزئين ساخرين . هذا ابن أبى كبشة يكلم من السماء لايزيدون على ذلك . ولكنه عليه السلام . عاب آلهتهم . وسفه عقولهم . وجاهرهم بسب أصنامهم .

كان أبو جهل (لعنه الله) كثيرا ما ينهى الرسول عن الصلاة فى البيت . وقال له مرة بعد أن رآه يصلى : ألم أنهك عن هذا ؟ فأغلظ له رسول الله صلى الله عليه وسلم القول وهدده . . قال : أتهددنى . وأنا أكثر أهل الوادى ناديا . . فأنزل الله تهديدا له فى آخر سورة إقرأ : « كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية . ناصية كاذبة خاطئة . فليدع ناديه . سندع الزبانيه . كلا لا تطعه . واسجد واقترب ...

صور مؤلمة فى حياة محمد عليه السلام . ولقاء مع الكفر . وجها لوجه وموعد مع الزمن فى فترة حاسمة من حياة الأمم وتاريخها .. لقد عاش محمد قويا . فى إيمانه . وفى دعوته . لم يأبه بقوتهم . ولم يقم لجبروتهم وزنا . بل كان حريصا عليهم . معنيا بهدايتهم ..

لقد أولم عقبة بن أبى معيط وليمة دعا إليها رؤوس الكفر . وصناديد الشرك . . وكان عقبة على فجوره . وطغيانه جارا لمحمد عليه السلام فوجه عقبة الدعوة إلى الرسول ليشارك الناس تلك الوليمة . فلبى عليه السلام دعوة عقبة . . وحينما حل موعد الطعام خاطب الرسول عقبة قائلا . . لقد أجبت دعوتك . ولكن لا آكل لك طعاما حتى تؤمن بالله . فنطق عقبة بالشهادة . . وانتهى أمر هذا الحادث إلى أبى بن خلف الجمحى (وكان صديقا لعقبة) فقال له ما شىء بلغنى عنك ؟ . فقال : لا شىء . دخل دارى رجل شريف فأبى أن يأكل طعامى حتى أشهد له . فاستحييت أن يخرج من بيتى ولم يطعم . فشهدت له .

فقال أبى : وجهى من وجهك حرام . إن لقيت محمدا فلم تطأ عنقه . وتلطم وجهه . فلما رأى عقبة رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتدى عليه كما أراد خليله . فأنزل الله فى سورة الفرقان : « ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا . يا ويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا . لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى . وكان الشيطان للإنسان خذولا » وحسب أبى بن خلف . أن يقرن مع خليله فى صفد من أصفاد جهنم تغمره الندامة . بعد أن صار سلفا ومثلا للآخرين .

أفبعد هذا أيها القارىء الكريم تتحمل أعصابك تلك المآسى الموحشة التى كان يراها الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

لم يجمل القوم له فى القول أبداً . . واتخذوا من العداء العام سبيلا لإنكار حقوق المسلمين فى استخفاف وتهكم . وازدراء .

لقد كان لرجل من المسلمين المستضعفين إسمه خباب بن الأرت . دين على العاص بن وائل من كبراء قريش . فتقاضاه دينه . فقال له العاص بن وائل . أليس يزعم محمد هذا الذى أنت على دينه أن فى الجنة مايبتغى أهلها ، من ذهب أو فضة أو ثياب ؟ قال خباب : بلى . قال : فأنظرنى إلى هذا اليوم . فسأوتى مالا وولدا . وأقضيك دينك . فأنزل الله فيه من سورة مريم : « أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا . أطلع الغيب ؟ أم اتخذ عند الرحمن عهدا .. كلا . سنكتب مايقول ونمد له من العذاب مدا . ونرثه ما يقول ويأتينا فردا » .

قصص كثيرة من قصص التعذيب تبرز لنا كل معانى الحقد الذى أكل قلوب المشركين . وتترجم لنا الانفعالات والإحساسات التى كانت تملأ جوانحهم . . لم يقف الأمر عند الرسول وحده . بل انتقل الاضطهاد إلى المسلمين الأوائل . . يضربونهم . ويفتنونهم فى دينهم . . وافترق أمر قريش . فتعهد بنو هاشم . وبنو المطلب مع أبى طالب على القيام دون النبى صلى الله عليه وسلم . . واشتد الهوان على المسلمين فقد أخذ المشركون يعذبونهم . فألبسوهم الحديد المحمى . وصهروهم فى الشمس حتى إن بلالا هانت عليه نفسه فى الله عز وجل . وهان على قومه . فأسلموه إلى الولدان . فجعلوا يطوفون به فى شعاب مكة وهو يقول أحد أحد . .

ولقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على عمار بن ياسر وأهله . وهم يعذبون بالنار في دين الله . فقال عليه السلام : « صبراً آل ياسر فموعدكم الجنة . ولقد مات أبو عمار . وأمه تحت العذاب . وإن خباب بن الأرت كانت تعذبه مولاته بالنار . فتأتى بالحديد المحمى . فتجعله على ظهره ليكفر . فلا يزيده ذلك إلا إيمانا . . وجاء خباب مرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهو متوسد بردة فى ظل الكعبة . فقال يارسول الله . ألا تدعو لنا . فقعد عليه السلام محمرا وجهه فقال : إن من كان قبلكم . كان ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم ودم وعصب . ويوضع المنشار على فرق أحدهم . فيشق ما يصرفه ذلك عن دينه . وليظهرن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله . والذئب على غنمه . ثم أنزل الله تثبيتا للمؤمنين أول سورة العنكبوت . فقال عز من قائل : « ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » لقد انتشر العداء فى كل مكان . ووصل إلى كل إنسان . والرسول عليه السلام كان يعلم تمام العلم . أن أساس دعوته . التوحيد . وأن يقتلع الشرك من أصوله . فلا يبقى على شيء من هياكله المتداعية ولا يتسامح فى رسم من رسومه الواهية : « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم » غير أن القوم من حوله . كانوا أعداء ماجهلوا . وإن كان سعادة ونعيما . أحباء ما ألفوا وإن كان شقاء وجحيما . فأعدوا العدة ليصدوا عن سبيل الله . وحشدوا كل ما استطاعوا من قوة وبطش . وغدر . ودهاء . وأعد لهم عليه السلام من ثبات جنانه . وصحة عزمه ، وصدق يقينه جيوشا موصولة بجيوش . .

رأى الكفار أن الأذى مهما امتد وطال . لا يمكن أبداً أن يثنى الرسول عن دعوته ولقد ظهر واضحا جليا أن ما قاموا به لم يؤثر فى الدعوة وصاحبها . . فلجأوا إلى وسيلة أخرى . هى وسيلة السلم لأول مرة . . ذهب القوم المشركون إلى التشـاور فيما بينهم . فقال عتبة بن ربيعة العبسى من بنى عبد شمس بن عبد مناف وكان سيداً مطاعا فى قومه : ـ يا معشر قريش ألا أقوم لمحمد فأكلمه فأعرض عليه أموراً عله يقبل بعضها . فنعطيه إياها ويكف عنا ؟ قالوا : يا أبا الوليد قم إليه فـكلمه .... فذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسـلم وهو يصلى بالمسجد . وقال يا ابن أخى . إنك منا حيث قد علمت من خيارنا

حسبا ونسبا .. وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم . فرقت به جماعتهم وسفهت أحلامهم . وعبت آلهتهم ودينهم . وكفر من مضى من آبائهم فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها . لعلك تقبل منها بعضها ..

فقال عليه الصلاة والسلام : قل يا أبا الوليد أسمع .

فقال : يا ابن أخى . إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا . وإن كنت تريد شرفا سودناك علينا . حتى لا نقطع أمراً دونك . وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا . وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا من الجن طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه . فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى . فقال عليه الصلاة والسلام : أفرغت يا أبا الوليد ، قال : نعم — قال : فاسمع منى . فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حم تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيراً ونذيرا . فأعرض أكثرهم . فهم لا يسمعون وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه . وفى آذاننا وقر . ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون . قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد . فاستقيموا إليه واستغفروه . وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون . الى أن وصل الى قوله تعالى : فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود . وهنا أمسك عتبة بفيه صلى الله عليه وسلم خشية أن ينزل عليهم العذاب . وناشده الرحم أن يكف عن ذلك .. فلما رجع عتبة سألوه . فقال : والله لقد سمعت قولا ما سمعت مثله قط والله ماهو بالشعر ولا بالكهانة . ولا بالسحر . يامعشر قريش . خلوا بين الرجل وبين ماهو فيه . فاعتزلوه فوالله ليكونن لكلامه الذى سمعت نبأ فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم . وإن يظهر على العرب . فعزه عزكم . فقالوا : لقد سحرك محمد . فقال هذا رأيى

هجرتان إلى الحبشة

لقد ظن المشركون أن محمداً صلى الله عليه وسلم يعيش وحده فى ميدان الدعوة يكافح ويناضل من أجل هوى فى نفسه .. وغاية دنيوية يسعى إليها .. لقد خيل إليهم وهمهم الخاطىء أن تلك التصرفات المحمدية مجردة عن غايات عليا ومؤيدة بشديد القوى ..

فتفننوا وتماكروا .. ولكن هل يترك الله نبيه ودعوته لقمة سائغة دون أن يرعاها .. ويحفظها .. كلا ..

لقد عز على الرسول عليه السلام . موقف المسكين من الدعوة . وصعب عليه مايلاقيه القليل من صحابته من ظلم وعسف واضطهاد

١ — الهجرة الأولى : فى السنة الخامسة من النبوة جمع الرسول صحابته وقال لهم : تفرقوا فإن الله سيجمعكم .. فسألوه عن الوجهة فأشار إلى الحبشة .. عندئذ تجهز الناس للخروج من ديارهم وأموالهم . فراراً بدينهم كما أشار عليه السلام .. وهذه أول هجرة من مكة فى الإسلام . وعدة مهاجريها عشرة رجال وخمس نسوة وهم : عثمان بن عفان . وزوجه أم سلمه . وأخوه لأمه أبو سبرة بن أبى رهم . وزوجه أم كلثوم . وعامر بن أبى ربيعه . وزوجه ليلى . وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة . وزوجه سهلة بنت سهيل . وعبد الرحمن بن عوف . وعثمان بن مظعون ومصعب بن عمير ، وسهيل بن عمير ، وسهيل ابن البيضاء ، والزبير بن العوام ، وجلهم من قريش .. ولما انتهوا إلى البحر . استأجروا سفينة أوصلتهم إلى مقصدهم . فأقاموا آمنين ولم يبق مع النبى ﷺ يومئذ إلا القليل ، وفى ذلك الوقت ، أسلم حمزة عم الرسول ، وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما .. وكان المسلمون إذ ذاك بضعا وأربعين رجلا . وإحدى عشرة امرأة . وعز الله بهما الإسلام ، وكان عمر شديد الأذى للمسلمين .. قالت ليلى : وهى إحدى المهاجرات إلى أرض الحبشة مع زوجها ، كان ابن الخطاب من أشد الناس علينا فى ديننا : فلما ركبت بعيرى أريد أن أتوجه إلى أرض الحبشـــة .. إذ أنا به . فقال لى : إلى أين يا أم عبد الله ؟ فقلت : قد آذيتمونا فى ديننا نذهب فى أرض الله حيث لا نؤذى فقال : صحبكم الله . فلما جاء زوجى عامر أخبرته بما رأيت من رقة عمر . فقال ترجين أن يسلم ؟ والله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب ، وذلك لما كان يراه من قسوته وشدته على المسلمين .

وبعد ثلاثة أشهر من خروج مهاجرى الحبشة .. رجعوا إلى مكة ولكن لم يتمكن من الدخول إليها أحد إلا من وجد له مجيراً فدخل أبو سلمة فى جوار خاله أبى طالب ودخل عثمان بن مظعون فى جوار الوليد بن المغيرة .. وقد رد جواره حين رأى ماصنعه بالمسلمين .. فلم يرضى أن يكون مرتاحا ، وإخوانه يعذبون ..

٢ — الهجرة الثانية : وفى السنة السابعة ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه بالهجرة إلى الحبشة للمرة الثانية . وعدة أصحابها نحو ثلاثة وثمانين رجلا . وثمانى عشرة امرأة . وكانوا جميعا من بطون قريش ومنهم من الرجال : جعفر بن أبى طالب وزوجه أسماء بنت عميس ، والمقداد بن الأسود ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن جحش وامرأته أم حبيبه بنت أبى سفيان ، وتوجه لهم الذين أسلموا من اليمن . وهم الأشعريون أبو موسى وبنو عمه ولقد أكرم النجاشى مثواهم . وترك لهم الحرية التامة فى القيام بعبادتهم ...

ولما رأت قريش ذلك أرسلت فى أثرهم عمرو بن العاص. وعمارة بن الوليد بالهدايا والتحف إلى النجاشى ليطلبنا منه رد المهاجرين إلى بلادهم ، ولكن النجاشى رفض تسليمهم حتى يسمع منهم ما يقولون فى دينهم .. وشرح له جعفر بن أبى طالب نيابة عن إخوانه . ماكان عليه حال العرب قبل الإسلام . وما أمر به الرسول من ترك عبادة الأوثان . وما وصاهم به من مكارم الأخلاق . ثم قال له : « إنا قصدنا جوارك . ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك »فطلب النجاشى منه أن يسمعه شيئا من القرآن . فقرأ له سورة مريم ، فقال النجاشى . إن هذا والذى جاء به المسيح ليخرج من مشكاة واحدة انطلقا فوالله لا اسلمهم أبدا ..

ثم أسلم النجاشى لما دعاه النبى صلى الله عليه وسلم بالكتاب الذى بعث به إليه مع عمرو بن أمية الضمرى .. وكذلك أسلم من رحل من الحبشة إلى المدينة من القسيسين والرهبان سنة سبع من الهجرة حين سمعوا من النبى سورة يس .. ولقد بكوا حين سمعوا القرآن ، وقالوا ما أشبه هذا بماكان ينزل على عيسى وفيهم نزل قوله تعالى : « وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق، وقد مات النجاشى مسلما ، وصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أعلمه جبريل بوفاته ، وهذه أصل صلاة الجنازة على الغائب .

« قلوب تلين »

لم يقف المشركون أمام هذه التطورات التى كانت تحدث فى جانب الدعوة .. لقد وجد المسلمون طريقهم إلى الحبشة التى فيها تكرم وفادتهم ، فغاظ ذلك أهل مكة من

المشركين ، فكانوا يعاودون التعذيب والتنكيل بأتباع محمد .. لقد اتفقت قريش على منابذة بنى هاشم وبنى المطلب ولدى عبد مناف ، وإخراجهم من مكة ، والتضييق عليهم ، فلا يبيعونهم شيئا ،ولا يبتاعون منهم حتى يسلموا إليهم محمداً، للقتل ،وكتبوا بذلك صحيفة أودعوها فى جوف الكعبة ..

كان لهذا الحدث أثر كبير فى عائلة الرسول ، وأقربائه المناصرين له غير أن أبا لهب انحاز إلى قريش .. لقد اشتد الأمر بالرسول وقومه فدخلوا الشعب ، وهاجر بعضهم ، وبقى الآخرون يعانون الصعاب. والشدائد .. فأخذت النعرة جماعة من أشراف قريش . فقام خمسة منهم يطالبون بنقض هذه الصحيفة الظالمة واتفقوا على ذلك ليلا .. والخمسة هم ، هشام بن عمرو بن الحارث العامرى ، وهو أعظمهم فى ذلك بلاء ، وزهير بن أمية المخزومى ابن عاتكة عمة الرسول عليه السلام ، والمطعم بن عدى النوفلى . وأبو البحترى ابن هشام الأسدى ، وزمعة بن الأسود الأسدى فلما أصبحوا غدا زهير وعلية حلة فطاف بالبيت ،ثم أقبل على الناس فقال : يا أهل مكة ، إنا نأكل الطعام ، ونلبس اللباس وبنو هاشم ، وبنو المطلب هلكى ، لا يبيعون ولا يبتاعون والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة القاطعة ، فقال أبو جهل ؛ كذبت . فقال زمعة لأبى جهل : أنت والله أكذب ما رضينا كتابتها حين كتبت ، وقال أبو البحترى : صدق زمعه ، وقال المطعم : صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، وصدق على ماقاله هشام بن عمرو ، فقام إليها المطعم ابن عدى ، وشقها وكانت الأرضة قد أكلتها فلم يبق منها إلا لفظ (الله) وقد أخبر النبى عليه السلام عمه بذلك قبل أن يفعل ما ذكر فخرج القوم إلى مساكنهم بعد هذه الشدة .

فى غمار تلك المشاكل القاسية خيمت سحابة أخرى سوداء فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم .. وكأنما أراد الله بذلك أن يقوى نبيه ، ويمتحنه لأيام سيطول فيها كفاحه ، ويستمر فيها جهاده .. لقد بلغ الرسول عليه السلام الخمسين من عمره ، وفى تلك الآونة مات عمه ابو طالب ؛ وزوجه خديجة رضى الله عنهما، فاشتد الأمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فقالت قريش منه مالم تكن تطمع فيه فى حياة عمه أبى طالب وزوجه خديجة ـ وصارت تنتقل معه فى سبيل الأذى من باب إلى باب ، وتنقلب من فكر إلى فكر ، خصوصا أبا لهب ، والحكم بن العاص .. وعقبة بن أبى معيط فإنهم كانوا

جيرانه يؤذونه بإلقاء القاذورات عليه وقت صلاته كما أسلفنا ، وقد سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا العام الذى فقد فيه عمه وزوجه عام الحزن .

لقد قويت شوكة المشركين بموت أبى طالب الذى كانوا يعملون حسابه إذا ما حاولوا النيل من رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام هذه الشدة لم يكن الرسول عليه السلام ليغفل لحظة واحدة عن التفكير ، فنصراؤه بمكة أصابهم الوهن .

فذهب عليه السلام إلى الطائف ، وبه قبائل ثقيف ، لعله يجد من ينصره ، ويساعده على تبليغ الرسالة ، فدعاهم إلى الاسلام فأبوا وأغروا به سفهاءهم ، وعبيدهم يسبونه ، ويصيحون به حتى اجتمع الناس عليه وقعدوا له فى طريقه صفين يرمونه بالحجارة وزيد ابن حارثة مولاه يدرأ عنه ، إلى أن انتهى إلى كرمة واستظل بها وكانت بجواره بستان لعتبة وشيبة ابنى ربيعة ، وهما من أعدائه ـ وكانا فى البستان ـ فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانتهما فقال : « اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى ـ وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ؟إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك ، الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك ... »

كان هذا النفر الذى جلس إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثقيف يشرح لهم مبادىء الإسلام . . هم ، ثلاثة إخوة عبد ياليل بن عمرو بن عمير ومسعود بن عمرو بن عمير ، وحبيب بن عمرو بن عمير .. فقام أحدهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : أنت تشرح مبادىء الاسلام . وتطلب منا المؤازرة والنصر . وهل الله أرسلك . قال هـــذا على سبيل الاستخفاف . والاستنكار بالرسول وقال الآخر . أما وجد الله أحداً غيرك يرسله . وقال الثالث . والله لا أكلمك أبداً . لئن كنت رسولا منه أى من الله كما تقول . لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام . ولئن كنت تكذب على الله : ما ينبغى لى أن أكلمك . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندهم . وقد يئس من خير ثقيف . وقد قال لهم : إذا فعلتم ما فعلتم . فاكتموا عنى ، وكره عليه

السلام أن يبلغ قومه عنه فيثيرهم ذلك عليه . فكان العداء الذى كرهه الرسول عليه السلام وكان التوجه إليه فى طلب السمح والغفران . .

وكان عتبة وشيبة ابنا ربيعة يتابعان تحركات المصطفى عليه السلام . فلما رأياه وقد أصابه التعب تحركت له رحمهما . فدعوا غلاما لهما نصرانيا يقال له عداس . فقالا له . خذ قطفا من هذا العنب . فضعه فى هذا الطبق ثم اذهب به إلى هذا الرجل ، فقل له يأكل منه . . ففعل عداس . ثم أقبل به حتى وضعه بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم قال له كل . وما كاد عليه السلام يضع يده فى الطبق حتى قال : بسم الله الرحمن الرحيم . . ثم أكل . فنظر عداس فى وجهه . ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد . فقال له الرسول عليه السلام ومن أهل أى البلاد أنت يا عداس ؟ وما دينك ؟ قال : نصرانى . وأنا رجل من أهل نينوى . . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرية الرجل الصالح يونس بن متى . فقال عداس : وما يدريك ما يونس بن متى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذاك أخى ، كان نبيا ، وأنا نبى فأكب عداس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقدميه . . فلما جاءهما عداس ، قالا له ، ويلك ياعداس ؟ ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ قال : يا سيدى ، ما فى الأرض شىء خير من هذا ، لقد أخبرنى بأمر ما يعلمه إلا نبى . قالا له : ويحك يا عداس ، لا يصرفنك عن دينك ، فإن دينك خير منه ، ثم أسلم عداس ، ولم يبال بإغرائهما . .

عرض وطلب

صور من الكفاح المرير تتكرر ، وإعراض عن الدعوة يمتد إلا بقية الهدى فى نفوس المؤمنين بها ، واضطهاد للرسول فى كل أفق وفى كل شعب من شعاب مكة ، غير أن كل تلك العوامل جميعها لم تكن فى نظر الرسول سوى أمور عادية ، يقابلها عزم وإيمان . وصبر وتحمل . . فالمعركة بين الحق والباطل ما زالت قائمة على أشدها ، والصراع لم تخمد جذوته بعد بين عقائد شوهت معالم الرحمة فى الأرض . وبين عقائد خالصة تسعى لإقرار المحبة والسلام . . .

لا بد إذن من خطوات إيجابية أخرى تنشط فى حياة الرسول عليه السلام . لكى ينتصر الحق وأهله . ويندحر الباطل وأعوانه . . .

رجع الرسول عليه السلام من الطائف بعد أن جابه الاعراض من أهلها ، وعمل على أن تكون مهمته ، هى عرض نفسه على القبائل المجاورة لمكة . . والتى كانت تأتى إليها فى المواسم المشهورة عند العرب ، وفى أول موسم . . عرض الرسول نفسه على تلك القبائل ، يدعوهم إلى الله ، ويخبرهم أنه نبى مرسل ويسألهم أن يصدقوه ، ويمنعوه حتى يبين الله ما بعثه به ، فكان بعضهم يرده ردا جميلا . وآخرون ردا قبيحا . وكان من أقبح القبائل بنو حنيفة رهط مسيلمة الكذاب . . وطلب منه بنو عامر ـ إن هم آمنوا به ـ أن يجعل لهم أمر الرياسة من بعده ، فقال لهم ، الأمر لله يضعه حيث يشاء فقال بنوعامر . أفتهدف نحورنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا . . لا حاجة لنا بأمرك وأبوا عليه .

رجع القوم إلى بلادهم بعد أن سمعوا ، ووعت قلوبهم من دعوته ما وعت . . قالت بنو عامر إلى شيخ لهم أدركته الشيخوخة بحيث لا يستطيع معها الخروج من بلد : جاءنا فتى من قريش ثم أحد بنى عبد المطلب ، يزعم أنه نبى ، يدعونا إلى أن نمنعه ، ونقوم معه ، ونخرج به إلى بلادنا ، قال الشيخ بعد أن وضع يديه على رأسه : يا بنى عامر هل لها من تلاف ؟ والذى نفس فلان بيده ما تقولها إسماعيل قط . وإنها لحق . فأين رأيكم كان عنكم ؟

لم يترك الرسول جماعة ولا قوما إلا عرض نفسه ، وأبان مزايا مبادئه ، لقد غادر المدينة إلى مكة رهط من الأوس فيهم أنس بن رافع ، وإياس بن معاذ وابو الحيسر ، وفتية آخرون من عبد الأشهل ، جاء هذا الرهط إلى مكة يلتمسون الحلف عند قريش على بنى عمهم من الخزرج ـ وكانت الأوس والخزرج قبيلتان تنحدران عن أصل واحد ، وتقيمان فى المدينة ، ولكن نار الحرب ، ما كانت بينهما تنطفىء ، ولا ثورة الخلاف تهدأ ، وما زال هذا الخلاف بينهما يشتد حتى كان يوم « بعاث » فنى فيه رؤساء القبائل ، وزعماء العشائر ، ثم وقعت بينهما هدنة حالفت الخزرج فيها اليهود ، وأخذت الأوس تلتمس الحلف عند العرب ـ سمع بهذا الرهط الذى فصل عن المدينة . . رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فأتاهم ، وجلس إليهم ، هل لكم فى خير مما جئتم له ؟ فقالوا له : وما ذاك ؟ قال أنا رسول الله بعثنى إلى العباد ، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله . ولا يشركوا به شيئا ، وأنزل

على الكتاب ، ثم ذكر لهم الاسلام ، وتلا عليهم القرآن ، فقال إياس بن معاذ وكان غلاما حدثا : أى قوم ، هذا والله خير مما جئتم له ، فأخذ أنس بن رافع حفنة من تراب ، وضرب بها وجه إياس بن معاذ ، وقال : دعنا منك ، فلعمرى ، لقد جئنا لغير هذا ، فصمت إياس ، وقام رسول الله عنهم ، وانصرفوا إلى المدينة . . وكانت بعد هذا وقعة بعاث ..

وما لبث إياس بن معاذ أن هلك ، وهم يسمعونه يهلل الله تعالى ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات ، فما كانوا يشكون أنه قد مات مسلما ..

لقد كانت الأيام تمر ، والقلوب تتحرك بين أحشائها ، وترنوا إلى حياة سامية تغير وجه التاريخ الذى أغبر بدنيا الناس التائهين فى غبار الجهل والضلالات ، وترس قواعد العدل بين الناس ...

تكاثرت الجماعات فى غدوها ورواحها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن شاع أجره ، وطـــار مع الريح خبره . . والرسول عليه السلام دائب فى حركته ينظر إلى الوفود ، ويقابل الجماعات .. لقد وفد على مكة فى نفس العام ، وفد من الخزرج ، ولقيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج ، قال أمن موالى يهود ؟ قالوا : نعم ، قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى ، فجلسوا معه ، ودعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم الإسلام . وتلا عليهم القرآن ، فدهش القوم لهذا الكلام الجديد ، حتى قال بعضهم : ياقوم ، تعلموا . والله إنه للنبى الذى توعدكم به اليهود ، فلا يسبقنكم إليه ، ثم أجابوه فيما دعا إليه ، وصدقوه فيما بلغ ، وقبلوا منه ماعرض عليهم من الإسلام ، وقالوا له إنا قد تركنا قومنا ، وبينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم . فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك ، ثم انصرفوا راجعين إلى المدينة .. وهناك دعوا قومهم . فلقى الاسلام فى نفوسهم الكريمة قبولا ، ومن سويداء أفئدتهم استئناسا ولم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لقد كانت الأيام تمر فى حياة الدعوة الإسلامية الخالدة ، فالرسول عليه السلام يقابل الناس على مختلف أهوائهم ، وغاياتهم ، ويحدثهم ، ويحرك قلوبهم بتعاليم الإسلام .. وهو ماض فى سبيله لا يثنيه عن عزمه صد أو إعراض ..

لقد فهمت الأقوام التى كانت تأتى حاجة إلى الكعبة مقصد الرسول ومرماه فكانوا يعترفون بالحق فى نفوسهم وبين جوانحهم ، اللهم إلا من تكسو قلبه معانى الإيمان الحق ، فينطق بها كلمات خالدة فى حياته .. تلك الكلمات هى التعبيرات الانفعالية التى امتزجت بإحساسهم ، واختلطت بشغاف قلوبهم ، لتظهر تلك المعانى كلها صفحات بيضاء أمام الرسول فتشجعه على المضى فى غاياته . جماعات تغدوا وتروح . كل واحدة تبلغ الأخرى . . حتى تحركت القلوب بين ضلوعها ، وتأثرت بتلك الأحداث الجديدة التى تبرز معالم حياة جديدة فى عمر الزمن ، وفى عمر البشر

مضى عام ، والرسول يرقب المواسم . . وإذا اثنا عشر رجلا ، يغدون مسلمين . . اثنان من الأوس .. وعشرة من الخزرج ، وأعلنوا للرسول إسلامهم . . وتلك هى بيعة العقبة الأولى ، ونذكر منهم من بنى النجار مثلا : أسعد بن زرارة ، وعوف ومعاذ ، وهما ابنا الحارس وهما ابنا عفراء .. ومن بنى زريق : ذكوان بن عبد قيس ، ورافع بن مالك ، ومن بنى عوف بن الخزرج : عباس بن عبادة بن الصامت ويزيد بن ثعلبة بن عبد الرحمن ، إلى آخر ماورد ذكره فى التاريخ الإسلامى مد الرسول عليه السلام يده الكريمة لبيعتهم ، فبايعوه وعاهدوه على أن لا يشركوا بالله شيئا ، ولا يزنوا ، ولا يقتلوا أولادهم ، ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ، ولا يعصوا الله فى معروف فإن وفوا فلهم الجنة ، وإن غشوا من ذلك شيئا فأمرهم إلى الله ، إن شاء عذب ، وإن شاء غفر ، ثم عاهدهم على كتمان أمرهم على قريش .. ووعدهم اللقاء فى العام القادم ، ويقول لهم الرسول فى حديث له : « فإن وفيتم فلكم الجنة ، ومن غش من ذلك شيئا كان أمره إلى الله ، إن شاء عذبه ، وإن شاء عفا عنه » .

انصرف القوم الذين أراد الله لهم الخير ، وبعث معهم الرسول عليه السلام مصعب ابن عمير ، وأمره أن يقرئهم القرآن ، وينشر بينهم لواء الإسلام ، ولم يكد يصل مصعب إلى المدينة حتى نزل عند أسعد بن زرارة ، فخرج به أسعد ، وذهب به إلى دار بنى ظفر

وجلس حوله من تآلفت قلوبهم ، وسرى إليهـــا النور الجديد فسمع به سعد بن معاذ ، وأسعيد بن حضير ، وهما رؤساء بنى عبد الأشهل ، وكلاهما مشرك ، فقال سعد لأسعيد : انطلق إلى هذين اللذين أتيا دارنا ، فانههما ، فإنه لولا أسعد بن زرارة . وهو ابن خالتى كفيتك ذلك ، فأخذ سعد حربته ثم أقبل عليهما فقال : ما جاء بكما ، تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلا ، فقال مصعب : أو تجلس فتسمع ؟ فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته كف عنك ما تكرهه ، فقال : أنصفت ، ثم جلس إليهما فكلمه مصعب بالاسلام فقال : ما أحسن هذا وأجله ، وهنا يتساءل ، كيف تصنعون إذا دخلتم فى هذا الدين ؟ قالا تغتسل ، وتطهر ثيابك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلى ركعتين ، ففعل ذلك وأسلم ، ثم قال لهما إن ورائى رجلا إن تبعكما لم يتخلف عنكما أحد من قومه ، وسأرسله إليكما وهو « سعد بن معاذ »

ثم انصرف إلى سعد وقومه ، فلما نظر إليه سعد ، قال أحلف بالله لقد جاءكم بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم ، فقال له سعد ، ما فعلت ؟ قال : كلمت الرجلين والله مارأيت بهما بأسا ، وقد حدثت أن بنى حارثة قد خرجت إلى أسعد بن زراره ليقتلوه ، فقام سعد مغضبا مبادراً لخوفه مما ذكر له ثم خرج إليهما ، فلما رآهما مطمئنين عرف ماأراد أسعيد ، فوقف عليهما وقال لأسعد بن زرارة ، لولا ما بينى وبينك من القرابة ، مارمت هذا منى ، فقال له مصعب : أو تجلس فتسمع ؟ فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكرهه ، فجلس فعرض عليه مصعب الإسلام ، وقرأ عليه القرآن ، فقال : كيف تصنعون إذا دخلتم فى هذا الدين؟ فقالا له : مثل ماقالا لأسعيد فأسلم وتطهر ثم عاد إلى نادى قومه ، ومعه أسعيد بن حضير ، فلما وقف عليهم ، قال : يابنى عبدالأشهل ، كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ قالوا : سيدنا ، وأفضلنا ، قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام ، حتى تؤمنوا بالله ورسوله ، قال . فوالله ما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلم ومسلمة ، ورجع مصعب إلى منزل أسعد ، ولم يزل يدعو إلى الاسلام ، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا ونور الايمان قد ملأ جوانبها .

لقد هز مصعب بن عمير قلوب أهل المدينة ، وترك فيهم تعاليم الاسلام الخالدة ، وآثاره الباقية .. لقد قرأ لهم القرآن ، وشرح لهم الاسلام وأقام بينهم الأذان فمنهم من

امتزجت تلك التعاليم بلحمه ودمه ومنهم من صفا قلبه ، ومنهم من ذاق حلاوة الإيمان العميق .

رجع مصعب سفير الرسول إلى أهل المدينة .. رجع إلى مكة مع من ناصروه وأقاموا على دعوته من الأنصار من المسلمين رجع مع حجاج تلك الأقوام حتى وصلوا الى المدينة فواعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم . العقبة أوسط أيام التشريق ..

وهنا يقول كعب : « خرجنا فى حجاج قومنا من المشركين ، وقد صلينا ، وفقهنا ، ومعنا البراء بن معرور ، سيدنا وكبيرنا ، فلما وجهنا لسفرنا وخرجنا من المدينة قال البراء لنا : يا هؤلاء ، إنى قد رأيت رايا فوالله ما أدرى ، أتوافقونى عليه أم لا ؟ قال : قلنا : وما ذاك ؟ قال قد رأيت أن لا أدع هذه البنية منى بظهر — يعنى الكعبة — وأن اصلى إليها ، فقلنا : والله ما بلغنا أن نبينا صلى الله عليه وسلم يصلى إلا إلى الشام وما نريد أن نخالفه ، قال : إنى لمصل إليها اليوم قال ، فقلنا له لكننا لا نفعل ، قال : فكنا إذا حضرت الصلاة صلينا إلى الشام ، وصلى إلى الكعبة ، حتى قدمنا مكة ، قال : وقد كنا عبنا عليه ما صنعه ، وابى إلا الإقامة على ذلك ، فلما قدمنا مكة ، قال لى : يا ابن اخى ، انطلق بنا إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، حتى نسأله عما صنعت فى سفرى هذا ، فإنه والله لقد وقع فى نفسى منه شيء ، لما رأيت من خلافكم إياى فيه ، فخرجنا نسأل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وكنا لا نعرفه ، ولم نره قبل ذلك .. فلقينا رجل من اهل مكة فسألناه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هل تعرفانه ، فقلنا له . لا . فقال هل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمه ؟ قلنا نعم ، قال : وكنا نعرف العباس ، كان لا يزال يقدم علينا تاجراً — قال فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس .

فدخلنا المسجد ، فإذا العباس جالس ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس معه ، فسلمنا ثم جلسنا إليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس ، هل تعرف هذين الرجلين ؟ قال : نعم ، هذا البراء بن معرور يا نبى الله ، سيد فى قومه ، وهذا كعب بن مالك ، قال : فوالله ما أنسى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم — الشاعر — ؟ قال نعم ، فقال له البراء بن معرور يا نبى الله ، إنى خرجت فى سفرى هذا ، وقد هدانى الله للاسلام ، فرأيت أن لا أجعل هذه البنية منى بظهر — فصليت إليها ، وقد خالفنى أصحابى

فى ذلك ، حتى وقع فى نفسى من ذلك شىء ، فماذا ترى يارسول الله ؟ قال : قد كنت على قبلة لو صبرت عليها ، فرجع البراء إلى قبلة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كانت نفوس الوفود تهفو إلى لقاء محمد ، والاستماع له .. لأن الناس فى ذلك الوقت قد شغلتهم أمر تلك الدعوة ، فنهم من كان يفكر فى الإعراض عنها ، ومنهم من امتزجت الدعوة بلحمه ودمه حتى صار جزء منها .

لقد ضربت الدعوة جذورها فى أهل المدينة ، وانتشرت فروعها فى كل حى من أحيائها .. فلا غرابة إذن ، أن يوجه القوم دعوة إلى الرسول يدعونه فيها إلى لقائهم ، والتحدث إليهم . .

ذهب جماعة من أهل المدينة ، وفيهم كعب إلى الحج فقابلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم . واتفقوا معه على الاجتماع بهم فواعدهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، العقبة من أوسط أيام التشريق

وهنا يقول كعب .. لما فرغنا من الحج ، وكانت الليلة التى اتفق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها على اللقاء بنا — وكان برفقتنا يومئذ أبو جابر عبد الله بن عمرو بن حرام أخذنا معنا — وكنا نخفى يومئذ أمرنا عن جماعة المشركين خوفا من الشر الذى كانوا يعيشون فيه يومئذ — لقد قلنا لأبى جابر : يا أبا جابر ، إنك من علية القوم ومن سادتهم وإنا نحب أن يهديك الله للاسلام ، ثم أخبرناه بميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوافق معنا على لقاء الرسول عليه السلام . .

ولما كان الموعد ، ومضى من الليل ثلثه ، خرجوا من رحالهم يتسللون والقوم مستخفون بأردية من الظلام كثيفة ، حتى اجتمعنا جميعا فى الشعب عند العقبة ، وكنا يومئذ ثلاثة وسبعون رجلا ، ومعنا امرأتان من نسائنا .. وما هى إلا لحظات حتى أطل علينا الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبرفقته عمه العباس بن عبد المطلب . وهو يومئذ على دين قومه .. إلا أنه أحب أن يتوثق لابن أخيه .

جلس القوم جميعا ، ورسول الله والعباس يتصدران القوم ، فكان أول من تكلم العباس ، فقال : يامعشر الخزرج ، إن محمداً منا حيث قد علمتم .. وقد منعناه من قومنا ممن

هو على مثل رأينا فيه ، فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه .. فهو فى عز ومنعة من قومه وبلده ، فقلنا له . لقد سمعنا ما قلت فتكلم يارسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت ، فتلا عليه السلام « القرآن » ودعا الى الله ورغب فى الإسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم . .

وهنا تقدم البراء بن معرور ، وأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : والذى بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه ذرارينا ، فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أهل الحرب وأهل الحلقة ، ورثناها كابرا عن كابرا ، فاعترض الكلام ، أبو الهيثم بن النيهان ، فقال يارسول الله : إن بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها « يعنى اليهود » فهل عسيت إن أظهرك الله علينا إن فعلنا ذلك ، ان ترجع إلى قومك ، وتدعنا .. فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنتم منى وأنا منكم أسالم من سالمتم وأحارب من حاربتم . . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخرجوا إلى اثنى عشر نقيبا يكونون على قومهم فأخرجوهم تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس ثم قال لهم الرسول عليه السلام .. أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل على قومى — يعنى المسلمين — قالوا : نعم .

ثم وقف العباس بن عبادة وقال : يامعشر الخزرج ، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم ، قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة ، وذهبت أشرافكم قتلا أسلمتموه فمن الآن ، فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة ، فتراجع القوم ، وأسر هذا القول لهم : وخشوا على أنفسهم ، وقالوا فما لنا بذلك يارسول الله ، إن نحن وفينا ؟ قال : الجنة ، قالوا : ابسط يدك نبايعك ، ثم بايعوه .

لقد وعدهم الرسول الجنة ، إن هم صدقوه ، فكان لهذا الوعد ، ولهذا القول أثر

كبير فى نفوسهم ، إذ غير مجرى الأحداث والتطورات التى كانوا يعيشون فيها ، وبسط أمامهم طريق السعادة فى الحياة فقال العباس بن عبد المطلب ، وهو آخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم أخفوا جرسكم ، فإن علينا عيونا ، وقدموا ذوى أسنانكم فيكونون هم الذين يلون كلامنا منكم ، فإنا نخاف قومكم عليكم ثم إذا بايعتم فتفرقوا إلى محالكم ، فتكلم البراء بن معرور فأجاب العباس بن عبد المطلب ، ثم قال : ابسط يدك يارسول الله ، فكان أول من ضرب على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم البراء بن معرور ويقال أول من ضرب على يده ، أبو الهيثم بن التيهان ، ويقال أسعد بن زرارة ، ثم تتابع السبعون كلهم على يده وبايعوه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن موسى أخذ من بنى اسرائيل اثنى عشر نقيبا ، فلا يجدن أحد منكم فى نفسه أن يؤخذ غيره ، فإنما يختار لى جبريل ، فلما انتهى القوم ، من مبايعتهم ، صاح الشيطان على العقبة بأبعد صوت سمع يا أهل الأخاشب : هل لكم فى محمد والصباة معه قد أجمعوا على حربكم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انفضوا إلى رحالكم ، فقال العباس بن عبادة بن نضلة ، يارسول الله ، والذى بعثك بالحق لئن أحببت لنميلن على أهل منى بأسيافنا ، وما أحد عليه سيف تلك الليلة غيره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا لم نؤمر بذلك ، فانفضوا إلى رحالكم ، فتفرقوا إلى رحالهم ، يكملون الليل نوما ، وأين النوم ، إنها لحظات حلوة ، ذاقت قلوبهم فيها حلاوة الايمان ، رغم ما خلفوا وراءهم من مكايد ، يدبرها المشركون الذين أعمى الضلال بصيرتهم ، وضيع الشرك معانى إنسانيتهم .

ماكادت شمس أول صباح تشرق على القوم المبايعين ، حتى عدت حلة قريش ، وجاءوا إلينا فى مناهلنا بعد أن انتشر أمر البيعة ، فقالوا : يا معشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حى من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم ، فانبعث من هناك من مشركى قومنا ، يحلفون بالله ما كان من هذا شىء ، وما علمناه وجعل ابن أبى يقول : هذا باطل ، وماكان هذا وماكان قومى ليفتاتوا على بمثل هذا ، لوكنت بيثرب ما صنع هذا قومى حتى يؤامرونى ، فلما رجعت قريش من عندهم ، رحل البراء بن معرور ، فتقدم إلى بطن يأجج ، وتلاحق أصحابه المسلمون ، وجعلت قريش تطلبهم فى كل وجه ولا تعدو طرق المدينة ، وحزبوا عليهم ، فأدركوا سعد بن عبادة .

بأذاخر والمنذر بن عمرو أخا بنى ساعدة بن كعب بن الخزرج ، وكلاهما ، كان نقيبا ، فأما المنذر فأعجز القوم ، وأما سعد فأخذوه ، فجعلوا يده إلى عنقه بتسعة ، وجعلوا يضربونه ، ويجرون شعره ، وكان ذا جمة ، حتى أدخلوه مكة ، فقال سعد : فوالله إنى لفى ايديهم ، إذ طلع على نفر من قريش فيهم رجل ، وضىء أبيض شعشاع ، حلو من الرجال فقلت فى نفسى . إن يك عند أحد من الرجال خير فعند هـذا ، فلما دنا منى رفع يده فلكمنى لكمة شديدة ، فقلت فى نفسى ، لا والله ماعندهم بعد هذا من خير ، ثم قال سعد ، والله إنى لفى أيديهم يسحبوننى إذ أوى لى رجل ممن كان معهم فقال ، ويحك ، أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولاعهد ؟ قلت ، بلى ، ووالله لقد كنت أجير لجبير بن مطعم ابن عدى بن نوفل بن عبد مناف تجارة ، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادى وللحارث بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، قال ويحك ، فاهتف باسم الرجلين ، واذكر مابينك وبينهما ، قال : ففعلت ، وخرج ذلك الرجل إليهما ، فوجدهما فى المسجد عند الكعبة ، فقال لهما : إن رجلا من الخزرج الآن يضرب بالأبطح ، ويهتف بكما ، ويذكر أن بينه وبينكما جواراً قالا : ومن هو ؟ ، قال : سعد بن عبادة قالا صدق والله ، إن كان ليجير لنا تجارنا ، ويمنعهم أن يظلموا ببلده ، فجاءا ، فخلصا سعداً من أيديهم ، فانطلق .

كان الأنصار قد ائتمروا فيما بينهم حين فقدوا سعد بن عبادة ، أن يكروا إليه ، فإذا سعد قد طلع عليهم ، فرحل القوم جميعاً إلى المدينة يحملون بين ضلوعهم نوراً يضىء مسالك الحياة ، للحيارى التائهين .

كانت المعارك تسير وتنسج على منوال صنعة أهل الشرك ، وكان العداء الشديد ، ولكن كل تلك التصرفات من جانب المكيين لم تكن لتثنى الرسول عن دعوته ، لقد أصبحت القلوب فى كل مكان تغمرها المحبة للرسول العظيم ، مما كان له الأثر الفعال فى رفع الروح المعنوية عالية بالنسبة للرسول عليه السلام ..

لقد نسى الرسول عليه السلام كل معنى للتعب ، لأنه كان يعلم أن المرحلة مرحلة تجلد وتحمل ، وكفاح .. فالكفار الذين رأوا الرسول يأتى بدين جديد يخالف طبائعهم وعاداتهم .. لا يمكن لهم أبدا أن يصبروا أو يسكتوا على ذلك ، فكانوا يكيدون له دائما ، ويتآمرون به .. رغم ما كان يبدو من الرسول ، من صفح ، وحلم ، وعفو عند

المقدرة .. حتى لقد قصد الرسول يوما أعرابى ، وفى يده سيف ، قد شهره فى وجه الرسول ، فقال الأعرابى من يمنعك منى يا محمد ، فقال عليه السلام : « الله » فسقط السيف من يد الأعرابى ، ثم جمدت يمينه فى الهواء ، فتناوله عليه السلام وشهره فى وجه الأعرابى مثل ما فعل الأعرابى به عليه السلام وقال له من يمنعك منى يا أعرابى ، قال : كن خير آخذ يا محمد ، فقال عليه السلام « اذهب فقد عفوت عنك » هذا مثل صادق من أمثلة العفو ، والسماح ، التى اتسمت بها دعوته الخالدة ..

استمرت المعركة حامية الوطيس بين الحق والباطل ، متشعبة الميادين وكان لتلك الأحداث وتواليها أثر كبير فى تهيئة الإنسانية إلى الخلاص من دنس الشرك وعبادة الأوثان ، وتوجيه الناس إلى بارىء السموات ..

كانت فى حياة الدعوة جولات مستمرة كان الباطل يصرع فيها دائما فى كل مرة يتلاقى فيها مع الحق ، لأن الله يؤيده ، وينصر أهله .. مما أدى بالمشركين إلى الوقوف أمام من هاجر من أصحابه إلى البلاد الأخرى كالمدينة مثلا ..

لقد كان المكيون يرتعشون من كثرة المهاجرين إلى المدينة . ولذلك كانوا يعملون ، جهدهم ،فى الحيلولة بين ذهاب الرسول إليهم واللقاء بهم وبين وصول الأخبار للمدينة .. ولم يكد دعاة الباطل من المشركين يشهدون تسلل المسلمين فراراً بدينهم إلى الحبشة ، ولا سيما بعد إسلام حمزة عم الرسول عليه السلام ، وعمر بن الخطاب ، حتى عز عليهم ذلك ، فمشوا إلى أبى طالب ، وطلبوا منه أن يسلم ابن أخيه ، وأن يأخذ مكانه عمارة بن الوليد : أعز فتى فيهم ، فكبر الأمر على أبى طالب ، وحمى أنفه الهاشمى وأبى أن يسلم ابن أخيه فى عز ومنعة وكبرياء ، ثم جمع بنى هاشم ، وبنى عبد المطلب ودخل بهم الشعب .. هنا تحالفت قريش كما قدمنا أمام هذا الإباء على مقاطعة بنى هاشم ، وبنى عبد المطلب ، وكتبوا صحيفة تلك المقاطعة التى كانت تعتبر بمثابة حرب اقتصادية تجرهم فيما بعد إلى تسليم أمورهم للمكيين المشركين .. علقت الصحيفة الآثمة فى جوف الكعبة مبالغة فى رعاية نصوصها ، وتنفيذ ما فيها من عقوق وكفران ..

مكث القوم ثلاث سنين فى عنادهم ، وكفرهم ، وصدهم ، ولكن أبا طالب قد أعلن

موقفه بصراحة من ابن أخيه فى قصيدة رائعة وعاها سمع الزمن .. وأصبحت من القصائد الخالدة ، فى تغيير مجرى التاريخ يقول أبو طالب فيها :

خليلى ما أذنى بأول عاذل ... بصغواء فى حق ولا باطل
فلما رأيت القوم لا ود عندهم ... وقد قطعوا كل العرى والوسائل
وقد صارحونا بالعداوة والأذى ... وقد طاوعوا أمر العدو المزايل
صبرت لهم نفسى بسمراء سمحة ... وأبيض عصب من تراث المقاول
أعوذ برب الناس من كل طاعن ... علينا بسوء أو ملح بباطل

ويسترسل أبو طالب فى تسفيه آراء قريش قائلا :

كذبتم وبيت الله نبزى محمدا ... ولما نطاعن دونه ونناضل
ونسلمه حتى نصرع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل

ويعود أبو طالب إلى ذكر محامد الرسول وتقرير سيادته فى قومه فيقول :

وما ترك قوم لا أبالك سيدا ... يحوط الذمار غير ذرب مواكل
وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم ... فهم عنده فى رحمة ، وفواضل
حليم رشيد ، عادل ، غير طائش ... يوالى إلها ليس عنه بغافل
لقد علموا أن ابننا لا مكذب ... لدينا ، ولا يعنى بقول الأباطل
فأيده رب العباد بنصره ... وأظهر دينا حقه غير ناصل

تلك هى صراحة العربى وشهامته اكتملت له كل معانى الرجولة .. إن أبا طالب يقرر فى جهره وعلانيته ، أن محمداً صادق لديه ، وأنه لولا أن يتسامع الناس بترك أبى طالب لدين آبائه ، لكان أول مستجيب له ، وهنا يقول :

فوالله لولا أن أجىء بسبة ... تجر على أشياخنا فى القبائل
لكنا اتبعناه فى كل حالة ... من الدهر جدا غير قول التهازل

ثم تملأ المحبة والرحمة قلب أبى طالب فيدعو لمحمد صلى الله عليه وسلم فيقول :

لعمرى لقد كلفت وجداً بأحمد ... وإخوته دأب المحب المواصل

فلا زال فى الدنيا جمالا لأهلها وزينا لمن ولاه ذب المشاكل
حدبت بنفسى دونه وحميته ودافعت عنه بالذرى والـكلاكل

استمر أبو طالب يكافح ويدافع عن الرسول . ما عاش حياته . غير أن الموت لا يرحم . فـكانت المنية التى عجلت به .

بعد وفاة أبى طالب ، أخذ المشركون يجددون نشاطهم ، ويواصلون هجماتهم على الرسول عليه السلام ، حتى ضاقت به السبل ، وزاد اضطهادهم للمسلمين من جديد ، على من آمن منهم ..

لقد أصبحت مكة دار بلاء ، وعذاب ، فما المقام على دار الهوان ، وهم العرب أباة الضيم ، والاذلال ، وهم المسلمون ، والاسلام دين العزة والمنعة والحرية والـكرامة .. ذلك هو الاسلام دين عام شامل .. لا دين مكة وحدها ، بل دين البشر كلهم ، حاضرهم ومستقبلهم ، فماذا عليهم إذن لو هاجروا ؟ أليسوا قد امتحنوا بأنـكر ألوان الأذى ؟ وفتنوا بأشد صنوف الآلام ؟ أو لم يضيق عليهم فى العبادة ؟ وتسد عليهم منافذ الطرقات ..

رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هم عليه من محنة وشدة . فأذن لهم بالهجرة إلى المدينة ، وقال لهم : إن الله قد جعل لـكم إخوانا ، ودارآ تأمنون بها ..

فاستجابوا لله وللرسول ، وهاجروا إلى المدينة ، أرسالا ، ونزحوا إليها جماعات ووحدانا تاركين كل ما حولهم ابتغاء مرضاة الله لقد هاجر المسلمون إلى المدينة ليرسموا الطريق لـكل من اضطهد فى عقيدته على مر الزمن ، ويضعوا الأسس السليمة لأجيال قادمة ، تحمل لواء الدعوة وترفع رايتها ..

الهجرة سبيل النبيين الأولين

لقد كانت الحياة والجو الذى يعيش فيه الرسول عليه السلام صدى لحياة النبيين من قبل ، فلقد قست عليهم أقوامهم ، وأمام تلك القسوة أمروا بالهجرة ..

لقد هاجر إبراهيم عليه السلام ، حين وجد خصوم الحق يضيقون على دعوته ويأتمرون به .. حتى قالوا : اقتلوه أو احرقوه .. فأنجاه الله من النار ويقص علينا القرآن الـكريم ذلك فى سورة العنكبوت ، وما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه

أو حرقوه ، فأنجاه الله من النار إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ، وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ، ويلعن بعضكم بعضا ، ومأواكم النار وما لكم من ناصرين فآمن له لوط ، وقال : إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم ، ووهبنا له إسحاق ويعقوب ، وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب . وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين .. »



فأوقدوا له النَّار وارتفع لهيبُها

لقد كان يأس الأنبياء من قومهم يمتد إلينا عبر السنين ، ويتخطى هام الأجيال الزاحفة . ونلمح من بين أحشاء التاريخ أن لوطا حين يئس من قومه ، أمره الله أن يترك هذه القرية التى كانت تعمل الخبائث ، وفى ذلك يقول الله العلى القدير فى كتابه « ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا ، وقال هذا يوم عصيب وجاءه قومه يهرعون إليه ، ومن قبل كانوا يعملون السيآت قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم ، فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد ، قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد ، قال : لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد ، قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك . فأسر بأهلك بقطع من الليل ، ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك ، إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب .. فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها ، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد » .

وكان الحال بموسى أيضا « لقد هاجر حين ائتمر به القوم ليقتلوه وجاءه رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ، فاخرج إنى لك من الناصحين . . فخرج منها خائفا يترقب ، قال رب نجنى من القوم الظالمين ، ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل »

وقد عاد موسى بعد ذلك إلى مصر بأمر ربه لانقاذ بنى إسرائيل ويقص علينا القرآن ذلك فيقول « وقتلت نفسا فنجيناك من الغم ، وفتناك فتونا ، فلبثت سنين فى أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى ، واصطنعتك لنفسى ، اذهب أنت وأخوك بآياتى ، ولا تنيا فى ذكرى ، اذهبا إلى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ، قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ، قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى ، فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم ، قد جئناك بآية من ربك . والسلام على من اتبع الهدى ..

لقد اشتد الألم بموسى ، إن فرعون توعده وقومه أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وأن يصلبهم فى جذوع النخل ..

فهاجر موسى وكانت معجزة انفلاق البحر ، ونجاته مع قومه ، وإغراق فرعون وجنده وفى ذلك لقول الله تعالى فى سورة الشعراء : « وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكم متبعون ، فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين ، إن هؤلاء لشرذمة قليلون ، وإنهم لنا لغائظون ، وإنا لجميع حاذرون ، فأخرجناهم من جنات وعيون ، وكنوز ومقام كريم ، كذلك وأورثناها بنى إسرائيل ، فأتبعوهم مشرقين ، فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون ، قال : كلا ، إن معى ربى سيهدين ، فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، وأزلفنا ثم الآخرين ، وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين ..

فأصحاب الدعوات دائما فى كل زمان ومكان تحدث لهم هزات عنيفة ، وكذلك الحال مع المصلحين ، إن للناس طبائع وعادات ، وما أصعب على الإنسان حين يروم تغييرها ، ما لم يتزمل بالصبر والتحمل والتجلد ، والهجرة إحدى تلك الدعائم القوية التى تبرز لنا مدى ما يتصف به الرجل من الحلم والأناة فماذا يضير محمداً إذن والقوم يرددون صدى

الآلام ، التى احمرت جوانب التاريخ بدماء الضحايامن البشر ، لماذا لم يهاجر ؟ لقد أوذى ، وعذب ، فلا سبيل إذن من الهجرة التى تحميه من شرور المجتمع الفاسد ، وآثام القوم الظالمين .

المؤامرة الكبرى فى التاريخ

أمام هذا العناد المر من المشركين ، والتحمل والصبر من المؤمنين لم يجد أتباع الرسول بدأ من الرحيل عن مكة ، والهجرة إلى المدينة ، فساروا إليها ، مؤتلفين ومتفرقين ، ولم يبق بمكة إلا الرسول ، وبعض صحبه .

رأى المشركون أن المسلمين رحلوا عن مكة ، رأوه واضحا ، فعملوا على الحيلولة بين محمد والذهاب إلى أصحابه ، وفكروا فى القضاء عليه حتى لا يشتد ساعد المؤمنين إن هو لحق بهم ، فاجتمعوا فى بيت قصى بن كلاب ، وبينما هم فى تآمرهم ، إذ اعترضهم ابليس فى هيئة شيخ جليل ، عليه كساء غليظ ، فوقف على باب الدار ، فلما رأوه واقفا على بابها ، قالوا : من الشيخ ؟ قال : شيخ من أهل نجد سمع بالذى اتعدتم له ، فحضر معكم ليسمع ما تقولون ، وعسى أن لا يعدمكم منه رأيا ونصحا ، قالوا : أجل فادخل فدخل معهم ، وقد اجتمع فيها أشراف قريش ، ومن كان معهم وغيرهم ممن لا يعد من قريش فقال بعضهم لبعض ، إن هــذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم ، فإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا ، فاجمعوا فيه رأيا ، فتشاوروا ، ثم قال قائل منهم ، احبسوه فى الحديد وأغلقوا عليه بابا ، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله ، زهير ، والنابغة ، ومن مضى منهم من هذا الموت ، حتى يصيبه ما أصابهم . . فقال الشيخ النجدى (إبليس) لا والله ، ما هذا لكم برأى ، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه إلى أصحابه ، فلأوشكوا ، أن يثبوا عليكم فينزعوه من أيديكم ، ثم يكاثروكم ، حتى يغلبوكم على أمركم ما هـذا لكم برأى ، فانظروا فى غيره ، فتشاوروا ، ثم قال قائل منهم نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا ، فإذا خرج عنا فوالله ما نبالى أين ذهب ، ولا حيث وقع ، إذا غاب عنا فرغنا منه فأصلحنا أمرنا ، وألفتنا كما كانت ، فقال الشيخ النجدى (إبليس) لا والله ماهذا لكم برأى ،

ألم تروا حسن حديثه ، وحلاوة منطقه ، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به ، والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حى من العرب ، فيغلب عليهم بذلك من قوله ، وحديثه حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم إليكم ، حتى يطأكم بهم فى بلادكم ، فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد .. دبروا فيه رأيا غير هذا ، فقال أبو جهل (لعنه الله) والله إن لى فيه رأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد ، قالوا : وما هذا يا أبا الحكم ، قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا ، جليداً ، نسيبا ، وسيطا فينا ، ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارما ، ثم يعمدون إليه ، فيضربونه بها ضربة رجل واحد ، فيقتلوه فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك ، تفرق دمه فى القبائل جميعا ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا فرضوا منا بالعقل فعقلناه له ، فقال الشيخ النجدى (إبليس) القول ما قال الرجل ، هذا الرأى الذى لا رأى غيره . فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون .

هذا رأى أبى جهل — إن صح — لتكسرت على صخرته كل معانى القيم الانسانية ولكن الله الذى حمل محمداً أمانة الدعوة ، والكفاح دونها لم يكن ليتخلى عنه أبداً ، مهما كانت شرور الحياة ، ومآسى القوم ، لقد خفق قلب الزمن ، فهل يا ترى ، سيتم لهم ما أرادوا ، كلا ...

لقد اسودت الدنيا ، لكن الله غالب على أمر أبى جهل ، وأعوانه وأين مكر القوم من مكر الله ، وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك ، أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ، صدق الله العظيم .

شأن المصلحين ، وطبيعة الاصلاح على مر الزمن ، ومختلف العصور عناد ، وإعراض وكفر بالجديد ، ولو كان فيه سعادتهم وحياتهم ، ولكن مهما كانت قوة الشرك لا يمكنها أبداً أن تحطم دعوة باركتها السماء واحتوشتها القلوب بين ضلوعها .

شرك أعمى ، وقوم تحكمت فيهم غباوة العقائد التى سلكوا سبيلها فى الفترة التى تعطلت فيها رسالة السماء :

قد خيم الشرك فوق الدور فارتفعا	واستحكم الجهل فى الألباب فانطبعا
وأصبح اليوم ليلا كاله وعمى	والأمر سفك وإجرام قد اندلعا
فالجهل كم أورد الجهال مهلكة	والجهل أوغل فى الافساد فارتبعا

المؤمنون حيارى فى مساكنهم · فى فزعة الخائف المذعور قد هلعا
لفتهم من دياجى الشرك مفزعة · فبدلت أمنهم فى أرضهم فزعا
فكان حقا على الهادى وشيعته · أن يستجيبوا لداعى الحق حين دعا
ناداك ربك هاجر فاستجبت له · ولو دعاه سوى مولاه ما سمعا

تواعد الفتيان ، يملأ نفوسهم الشريرة بغض وحقدوغدر ورثوه عن آبائهم وانحدر إليهم من أسلافهم ، وكانوا أكثر من عشرة ، وذهبوا إلى حيث المنزل الذى يسكن فيه أعز رجل ، وأعظم إنسان فى الحياة ، رسول الهداية ، وبشير السلام

ربض القوم أمام بيته صلوات الله وسلامه عليه لتنفيذ خطتهم ، ولكن الله ، قد أنبأ نبيه محمدا عليه السلام ، بما دبره القوم ، وذلك بوحى لا ينقطع ، وإلهام لا يفتر

فالأقدار هى التى ترتب الأحداث ، أمر الرسول بالهجرة إلى المدينة المنورة التى سبقه قومه إليها ينتظرونه ، ويتبينون فى الطريق شعاع الأمل لحريتهم وحياتهم

اشتد الحصار واستحكم على باب المنزل الذى ينام فيه الرسول عليه السلام ولكن جبريل عليه السلام قال لمحمد صلوات الله وسلامه عليه ، لا تبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه .

إنها ليلة رهيبة فى حياة الرسول والدعوة ، يجتمع القوم ويتربصون به الدوائر ، ويريدون إرجاع الناس إلى ظلم الظالمين ، ونار الطغاة الكافرين .

صدع صلوات الله عليه بما أمره به جبريل عليه السلام ، ولقد رأى عليه الصلاة والسلام فى عتمة الليل البهيم الكفار يرصدونه من ثقب بالباب . فأمر عليا رضى الله عنه بأن « نم على فراشى واتشح ببردى هذا الحضرمى الأخضر ، فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم ، وكان عليه السلام ينام فى برده ذلك إذا نام

أمر مطاع ، وحب قوى لا يعادلهدنيا الناس بما فيها وماعليها ، إيمان يمتزج بالقلوب ونفوس تتصافح على مبادىء الإيمان المتين ، إنها شدة ولحظة حاسمة ، وعند الشدة تظهر المحبة ، محبة صديق برسول فى ليل بهيم ، وزمن خطير .

نام على رضى الله عنه ، ثابت الجنان ، قوى الايمان ، خالص الرضاء والاطمئنان ،

كان رضى الله عنه يعلم مدى الأخطار ، وهول الوقع إن ظفر المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم

ولكنه الفداء والتضحية بالنفس وإن عز اللقاء .. نام رضى الله عنه ينتظر ما جاء به القضاء ، والرسول عليه السلام ، يعد العدة للخروج من بين القوم الذين احكموا الصنع ، وبيتوا ما بيتوا من غدر ، وخديعة وخسران أخذ عليه السلام حفنة من تراب بيده ، ورمى بها فى وجوه المشركين الأشداء الذين أتى بهم رؤوس الشرك ، وزعماء الوثنية والضلال ، نزل الثرى عليهم ، من يد قوته استمدت قوتها من يد الله ، فأعمى الله أبصارهم وضرب عليهم حجابا كثيفا من غشاوة طمست على قلوبهم ؛ وجعلتهم فى ضلالهم يعمهون .. لقد لف الليل سكون شامل ، وعم الناس صمت رهيب فى فترة يتحول فيها تاريخ البشر ، وتتبدل فيها الأحداث الهائلة التى تنكسر على صخرتها عقائد الشرك ، وآمالهم فى حياتهم .. خرج الرسول والقوم غافلون ،وسار من بينهم وهم مترصدون ونظر إليهم وهم ساهمون ، وهزمهم فوجدهم واجمين ..

لقد سلبتهم الأقدار من كل شيء حتى قدرتهم على الدفاع عن أنفسهم إن أراد محمد عليه السلام قتالهم فى ليلة .

إلى الغار يا رسول الله

خرج صلوات الله وسلامه عليه .. لقد وضع التراب على رؤوس القوم ، الذين تاهت معالم كرامتهم فى الحياة .. لقد أتاهم آت ممن لم يكن معهم ، وقال لهم ، ما تنتظرون قالوا محمداً قال : خيبكم الله .. قد والله خرج عليكم محمد ، ثم ما ترك منكم رجلا إلا وقد وضع التراب على رأسه ، فما ترون ما بكم ؟ فوضع كل رجل منهم يده على راسه ، فإذا عليه تراب ، ثم جعلوا يتطلعون فيرون عليا على الفراش متشحا ببرد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقولون : إن هذا لمحمد نائم ، عليه برده ، إنهم ينتظرون الصباح ليكشف لهم عن سعى ضل ، وأمل خاب .. عن قريب سترسل الشمس أشعتها على قوم لئام ، لتضيء لهم حياة الغدر والخيبة والخيانة .. ولتبدد ظلام الشرك ، وتهتك استار الجهالة التى عمت جوانب حياتهم ..

إن ساعات الليل تمر ، ولحظاته تسير إلى غاياتها التى ستبدأ صفحة من التاريخ جديدة ، من كتاب حياتهم .

لقد أشرق الصبح ، وطلعت شمسه ، دنيا تهتز من حولهم ، ونهار أسود من ليلهم يسد منافذ حياتهم .. لقد تبين القوم حقيقة المنسجى ، فإذا هو على وليس محمداً كما كانوا يظنون .. لقد ثارت ثائرتهم ، وخاب ظنهم ، وردت سهامهم إلى نحورهم ..

لقد اضطرب القوم فهاجوا وماجوا ، فاحمرت أحداقهم ، وانتفخت أوداجهم وتجمد الدم فى عروقهم ، لقد ضاعت آمالهم ، وذهبت مع الليل أفكارهم ، لقد خرج محمد .. فيا ترى .. إلى أى مكان قصد ، ومن من الناس تبعه . أفكار جديدة تجرى من جديد . وآراء تتصارع فى ميدان الشرك ..

أعد القوم عدتهم ، وجهزوا رحالهم ، واستجمعوا ما أهدر من قوتهم ، إنهم يبحثون من جديد ، إلى أين اتجه محمد ، وإلى أى مكان ولى وجهه ، إنه صراع يبدأ فى حياتهم .. ولنترك القوم يبحثون ونعود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لنرى ماتم من أمره .

لقد خرج الرسول وحده واتجه إلى بيت أبى بكر ، فى ساعة ليس معه فيها أنيس ولا رفيق ، إلا عين من الله ساهرة ، ورعاية منه ملازمة ، اتجه عليه السلام إلى بيت صديقه وحبيبه ، أبى بكر رضى الله تبارك وتعالى عنه ، وهنا تقول السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يخطىء أن يأتى أبا بكر فى بيته الذى يعيش فيه ، أحد طرفى النهار ، إما بكرة ، وإما عشية ، حتى إذا كان اليوم الذى أذن فيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة والخروج من مكة بين ظهرى قومه ، أتانا عليه السلام فى ساعة كان لا يأتى فيها ، فلما رآه أبو بكر قال : ماجاء بك يارسول الله الساعة ، ماجئت إلا لأمر حدث ، فلما دخل صلى الله عليه وسلم تأخر له أبو بكر عن سريره ، فجلس عليه السلام وليس عند أبى بكر إلا أنا وأختى أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنه فقال عليه السلام ، أخرج عنى من عندك ، فقال : يارسول الله ، إنما هنا ابنتاى ، وما ذاك ؛ فداك أبى وأمى ، فقال: إن الله قد أذن لى فى الخروج والهجرة ، فقال أبو بكر : الصحبة

يارسول الله ، قال : الصحبة ، ثم قال أبو بكر يانبي الله ، إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتهما لهذا ، فاستاجرا عبدالله بن أريقط ـ وكان رجلا من بنى الدئل بن بكر ، وكانت أمه امرأة من سهم بن عمرو ، وفى نفس الوقت كان مشركا ، يدلهما على الطريق ـ فدفعا إليه راحلتيهما ، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما .. ولم يعلم بخروج الرسول عليه السلام ، أحد حين خرج ، إلا على بن أبى طالب ، وأبو بكر الصديق ، وآل أبى بكر ، أما على فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبره بخروجه ، وأمره أن يتخلف بعده بمكة ، حتى يؤدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التى كانت عنده للناس ـ وكان عليه السلام ليس بمكة أحد عنده شىء ويخشى عليه إلا وضعه عنده ، لما يعلم من صدقه وأمانته ، خرج عليه السلام مع رفيقه وكان أبو بكر يعلم مبلغ المطاردة العنيفة التى كانت تملأ حياة الرسول ، صاحب أبا بكر ، وصادقه فى رحلة إلهية عظمى ، يهتكان فيها أستار الظلام . ويقطعان بسيرهما الفيافى والقفار ، يسيران مع الله الذى لازمت عنايته لهما فى كل خطوة يسجلانها على رمال الصحراء .. إنه الإيمان المصفى من شوائب الماديات ، فتجرد عنها وارتفع إلى مراتب الروحانيات السماوية العليا .. إنها ليال من الكفاح طويلة ، تشهد هذا الكفاح الدنيا وتعيه الأيام ، ويتردد فى سمع الزمن لحنا خالدا تتغنى به الأجيال ويعيش فى ظله أصحاب الدعوات الخالدات .

إن أبا بكر رضى الله عنه ، رجل طيب القلب ، سخى النفس : أحب الرسول من كل قلبه ، وآثره حتى على خاصة نفسه ، فعرف الرسول عليه السلام له هذه الصفات ، فأدناه منه ، وقربه إليه ، لقد أذن الرسول عليه السلام للمسلمين بالهجرة إلا أبا بكر ، فإنه كلما استأذنه فى الرحيل ، والذهاب إلى المدينة ، يستبقيه ، ويقول له لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبا فتهدأ نفس أبى بكر ، ويتمنى من كل قلبه أن يكون الرسول عليه السلام هو صاحبه إلى المدينة .. هذا هو أبو بكر الذى أحبه الرسول عليه السلام من أعماق فؤاده ، فكان لهذا الحب صدى ، وللشوق طريق إلى نفوسهم .

كانت الساعات تمر والرسول وصحبه فى طريقهما إلى الغار ، يختبآن فيه بعيدا عن أعين القوم ، وشرارهم ، فاستقروا فيه رغم ما كان يملؤه من الوحشة والظلمة ، مما لا يشجع إنسانا على الدخول فيه .

فماذا يكون الأمر إذن أمام القوم الذين يبحثون عن الرسول وصاحبه ، لقد أقام الأمر قريشا ، وأقعدها ، فجعلت مائة ناقة لمن يظفر بمحمد وصاحبه حيا أو ميتا ، إنهم يغدون ويروحون فى كل مكان ، وفى كل بيت .. وهنا تقول أسماء :

لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أتانا نفر من قريش ، فيهم أبو جهل بن هشام ، فوقفوا على باب أبى بكر ، فخرجت إليهم ، فقالوا أين أبوك يابنت أبى بكر .. قلت لاأدرى ، والله أين أبى ، فرفع أبو جهل يده .. وكان فاحشا خبيثا ـ فلطم خدى لطمة طار منها قرطى ، ثم انصرف فمكثنا ثلاث ليال ، وما ندرى أين وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أقبل علينا رجل من أسفل مكة يتغنى بأبيات من شعر غناء العرب وإن الناس ليتبعونه ، يسمعون صوته ، وما يرونه حتى خرج من أعلى مكة وهو يقول :

جزى الله رب الناس خير جزائه ... رفيقين حلا خيمتى أم معبد
هما نزلا بالبر وارتحلا به ... فأفلح من أمسى رفيق محمد
فيال قصى ما زوى الله عنكم ... به من فعال لا يجازى وسودد
سلوا أختكم عن شاتها وإنائها ... فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد
دعاها بشاة حائل فتحلبت ... له بصريح ضرة الشاة مزبد
فغادره رهنا لديها لحالب ... تدربها فى مصدر ثم مورد

فأصبح القوم ، وقد فقدوا نبيهم وأخذوا على خيمتى أم معبد ..
فأجابه حسان بن ثابت ..

لقد خاب قوم غاب عنهم نبيهم ... وقدس من يسرى إليهم ويغتدى
ترحل عن قوم فزالت عقولهم ... وحل على قوم بنور مجدد
فهل يستوى ضلال قوم تساعوا ... عمى . وهداة يهتدون بمهتد
نبى يرى مالا يرى الناس حوله ... ويتلو كتاب الله فى كل مشهد
فإن قال فى يوم مقالة غائب ... فتصديقها فى ضحوة اليوم أو غد
لتهن أبا بكر سعادة جده ... بصحبته من يسعد الله يسعد
ويهن بني كعب مكان فتاتهم ... ومقعدها للمسلمين بمرصد

وهنا تقول أسماء ـ فلما سمعنا قوله ، عرفنا حيث وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن وجهه إلى المدينة ، وكانوا أربعة ، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر ، وعبد الله بن أريقط دليلهما ..

وتسترسل أسماء في حديثها قائلة : لما خرج الرسول عليه السلام ، وخرج أبو بكر معه ، احتمل أبو بكر ماله كله ، ومعه خمسة آلاف درهم أو ستة ، فانطلق بها معه ..

قالت : فدخل علينا جدي أبو قحافة ، وقد ذهب بصره فقال : والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه ، قلت كلا يا أبت . إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً ، قالت : فأخذت أحجاراً ، فوضعتها في كوة في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها ، ثم وضعت عليها ثوبا ، ثم أخذت بيده فقلت : ياأبت ، ضع يدك على هذا المال ، فوضع يده عليه ، فقال لا بأس ، إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن .. وفي هذا بلاغ لكم .. وتقول أسماء ولا والله ماترك لنا شيئا ، ولكن أردت أن أسكن الشيخ بذلك .



غارُ حِـــــراء

لقد أصاب القوم الوهن ، وحل بهم التعب ، لقد وصلوا إلى الغار ، مقتفين بذلك آثار الرسول وصحبه التي كانت تنتهي بهم دائما إلى الغار ، إنهم ينظرون إلى الغار الذي انقطع عنده المسير فيجدون العنكبوت وقد نسج خيوطه على بابه ، والحمام وقد باض على فوهته .. فيتراجعون أمام هذا المنظر الطبيعي الخالد .. يالله نسيج وبيض بغطيان باب

الغار ، فهل ياترى يكون هناك أحد بداخله .. كلا ، كل شيء هادىء فى مكانه ، نسيج محبوك الأطراف لم تمسسه يد بشر ، وبيض وحمام وعش فى هدوء وأمن وسكينة .. يالها من معجزة خالدة ، عندماكان المشركون يرون ما يذهب من نفوسهم كل أمل على وجود أحد بداخل الغار ـ يخيب ظنهم وتتبدد آمالهم ، فيرجعون ، والرسول عليه السلام وصاحبه داخل الغار ..

وهنا تتحرك فى نفس أبى بكر جزعة ، خوفا واشفاقا على رسول الله صلى الله عليه وسلم .. إن أبا بكر ينظر من داخل الغار المظلم الموحش إلى بابه ، فيجد أبو بكر القوم بخيلهم ورجلهم وقد تجمعوا على بابه ، فينخلع بذلك قلب أبى بكر .. وهنا يقول رضى الله عنه لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ـ فيطمئنه الرسول عليه السلام بقوله مابالك باثنين الله ثالثهما ، فتهدأ نفس أبى بكر ، وينصرف القوم ، وتأخذ الرسول سنة من النوم فيتوسد فخذ أبى بكر رضى الله عنه .. فتأتى من أقصى الغار ، ومن بين الأحجار حية تسعى ، لم تعرف بعد معنى للرحمة ، فيراها أبو بكر وهى مقبلة فأعطاها يده لتنفث فيها سمومها ، خوفا وإشفاقا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر يكتم الألم ، ويجمع كل قواه لكى يكون أربط جأشا وأثبت قلبا ، وأهدى أعصابا ، حتى لا يوقظ الرسول عليه السلام الذى أخذ يريح جسمه بعض الوقت ..

قام الرسول عليه السلام من نومه ، فيجد الدمع يتحرك فى مآقى أبى بكر رضى الله عنه ، فيتساءل الرسول ، فيخبره أبو بكر الخبر ، فيتفل الرسول عليه السلام على الموضع الذى نفثت فيه الحية السم ، فيبرأ وتذبل الجراح ، ويذهب الألم .

إنه صراع عنيف ، وإرهاق فى سبيل الدعوة ، لقد سكن القوم وأعياهم الطلب وراحت جموعهم تتبعثر وتتمزق فى ربوع مكة وشعابها ، ومسالكها .

فى الطريق إلى يثرب الفيحاء

مكث عليه السلام وصحبه ثلاثة أيام بالغار يستمدان فيها العون من الله فى هذا الجو الموحش ، الذى يحدد مصير العالم ، ويضع للناس الحد الفيصل بين دنيا المادة ، ودنيا الروح ..

كانا يغتذيان طول تلك المدة التى قضياها فى الغار بلبان شاءكان يغدو بها عليهما ويروح عامر بن فهيرة مولى أبى بكر رضى الله عنه كما كان يوافيهما بأخبار أهل مكة وما يصنعون .

أقام عليه السلام وصحبه ثلاثة أيام بعيداً عن أعين القوم الذين جرى الشرك فى أوصالهم ، واختلطت الآثام بدمائهم حين جعلت قريش مائة ناقة لمن يأتى به حيا أو ميتا .. وكان عبد الله بن أبى بكر يكون فى قريش نهاره بينهم يتسمع أخبار قريش ويقرأ على وجوههم خلجات نفوسهم ، ومكنون أفكارهم ، ثم يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخبرهما بالذى صنعت قريش وكان عامر بن فهيرة مولى أبى بكر رضى الله عنه يرعى الغنم فى مراعى أهل مكة فإذا أمسى ، أراح عليهما غنم أبى بكر فاحتلبا وذبحا ، فإذا ترك عبد الله بن أبى بكر رسول الله وصاحبه فى الغار ، أتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يمضى عليه (أى على أثره) حتى إذا مضت الثلاثة وسكن عنهما الناس ، أتاهما صاحبهما الذى استأجراه ببعيريهما ، وبعير له ، وأتتهما أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما بسفرتها ، ونسيت أن تجعل لها عصاما ، فلما ارتحلا ، ذهبت لتعلق السفرة فإذا ليس لها وكاء ، فتحل نطاقها فتجعله عصاما ثم علقتها به ـ ولذلك سميت بذات النطاقين ـ وفى رواية بذات النطاق .

لقد دنت ساعة الرحيل إلى المدينة والخروج من الغار بعد أن أذن الله لرسوله بالسفر ، قدم أبو بكر رضى الله عنه أفضل الراحلتين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال له : اركب فداك أبى وأمى ، يارسول الله ولكن الرسول عليه السلام ، ما أحب أن ينال من حق الغير إلا بوجهه فقال لأبى بكر : إنى لاأركب بعيرا ليس لى ، قال: فهى لك يارسول الله بأبى أنت وأمى ، قال لا ، ولكن ما الثمن الذى ابتعتها به ؟ قال : كذا وكذا قال : قد أخذتها به ، قال : هى لك يارسول الله ، فركبا وانطلقا .

وأردف أبو بكر خلفه مولاه عامر بن فهيرة ليخدمهما فى الطريق .

هذا حوار لطيف بين الرسول وصحبه ، حتى فى ساعات الشدة ، فهجرتهما كانت فى سبيل الله ، وتعرضهما للأذى كان لله ..

إذن لابد وأن تمتزج كل تلك القيم الإنسانية العليا بمبادىء الدين الحنيف رسالة السماء ، ودستور الحياة .

سار عليه السلام ورفقته يجددان المسير ، ويضربان فى الأرض ، ليتخلصا من أحداث جسيمة ، كانت تنتظرهم ، لولا رحمة السماء ، لقد كانت الدنيا كلها تشهد تلك المسرحية الخالدة ، التى دارت على رمال الصحراء ، وشاهدتها قوى الحق والباطل ، وكانت كل تلك القوى تعارك وتصارع فى كل لحظة تمر غير أن الباطل كان ينهزم فيها دائما ، لأن الحق لله ، والباطل لغير الله وما كان لله دام واتصل ، وما كان لغير الله انفصم وانقطع ..

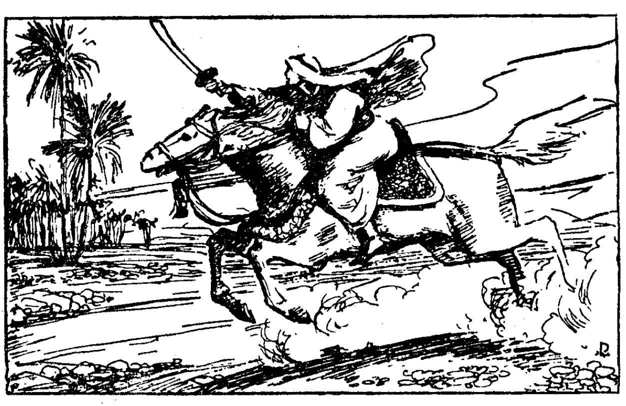
إن النياق تسير تشق أكباد الظلام بسيرها ، تحمل على ظهرها أبطال الدنيا ، وعظماء التاريخ .. تتهادى فى سيرها وحادوها يسيرون خلفها يتممون الجمع ، ويجمعون الشمل ، لقد كان الليل سترا ، والصمت رداء يكسون الحياة حول قافلة تسير ، اللهم إلا من عيون الهها تنظر من خبائها ، من بين جنبات الفيافى .. لقد سكنت وحوش البيداء وهجعت وكأنها كانت تعلم أن الحياة تقف دورة الأيام منها تلك اللحظة لتبشر بميلاد فجر جديد تتحد فيه القلوب لتبرز للعالم تاريخ الدنيا ولتدق نبراس الحرية لأناس حائرين فى ميادين الحياة ..

سارت القافلة ، واتجه بها عبد الله بن أريقط طريق الساحل ، حتى إذا كانوا تجاه حى بنى مدلج ، بصر بهم رجل من الحى ، فنادى فى القوم ، أيها القوم ، إنى قد رأيت على الطريق جماعة ، ما أظن إلا أن فيهم محمدا وجماعة معه ، فرد عليه سراقة بن مالك ، لا،لا، إنى لأعرف من رأيت إنهم ليسوا بهؤلاء ، إنهم فلان وفلان ، ثم سمى جماعة غيرهم معروفين كانوا قد خرجوا لحاجات لهم ـ قال سراقة هذا القول ردا على الرجل يريد بذلك إيهام القوم ، وحرف أنظارهم عنه كى يظفر بالجعل الذى جعلته قريش لمن يأتى بمحمد حيا أو ميتا .. لقد كانت غنيمة فى نظر سراقة لقد خيل إليه فكره الخاطىء أن الوصول إلى محمد من السهولة بحيث يكون ذلك طوع أمره .. لم يكن يدرى سراقة إن هناك عناية سماوية عليا ، تحف بركبه عليه السلام وتتجه معه أينما سار ...

أرسل سراقة فى طلب فرس له مع جارية أو غلام ينتظره خلف أكمة من الآكام

التى كانت تبعد عن مجلس القوم حتى لا يظهر لهم أمره ، وأمر الجارية أو الغلام بعدم تسرب الخبر إلى القوم . .

ثم خرج سراقة من وراء الخباء مستخفيا ، فركب ، وجد فى السير حتى قارب الجماعة ورآه أبو بكر ، فخاف منه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فثبته رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما كان يثبته فى الغار إذ يقول له لا تحزن إن الله معنا ودعا الرسول على سراقة فغاصت قوائم فرسه فى الأرض . فزعق سراقة زعقة شديدة ، كلها استرحام : وعفو عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعا له عليه السلام . . وقطع سراقة عهدا على نفسه أن ينصرف عنهم ، ويتركهم وشأنهم ، ثم يرد عنهم كل من يريد اللحاق بهم من أعدائهم ، وقد وفى سراقة وبر بعهده ، وقد عرض عليهما الزاد والحملان ، فقالا : اكفنا نفسك ، فقال فد كفيتكما . . وعرفها له رسول الله صلى الله عليه وسلم وجازاه بها حين حانت الفرصة أكرم جزاء .



سُراقة على فرسه

وهنا يقول سراقة عن نفسه : لما خرج عليه السلام من مكة مهاجرا إلى المدينة جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن رده عليهم : قال فبينا أنا جالس فى نادى قومى ، إذ أقبل رجل منا ، حتى وقف علينا فقال : والله لقد رأيت ركبا ثلاثة مروا على آنفا ، إنى لأراهم محمدا وأصحابه ، فأومأت إليه بعينى، أن اسكت ، ثم قلت إنما هم بنو فلان يتبعون ضالتهم

قال : لعله ، ثم سكت ، ثم مكثت قليلا ثم قمت ، فدخلت بيتى ، ثم أمرت بفرسى فقيد لى إلى بطن الوادى ، وأمرت بسلاحى ، فأخرج لى من دبر حجرتى ، ثم أخذت قداحى التى أستقسم بها ، ثم انطلقت ، فلبست لامتى ، ثم أخرجت قداحى ، فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذى أكره ، لا يضره ، وكنت أرجو أن أرده على قريش فآخذ المائة الناقة فركبت على أثره ، فبينما فرسى يشتد بى إذ عثر بى فسقطت عنه ، فقلت : ما هذا ؟ ثم أخرجت قداحى ، فاستقسمت بها فخرج السهم الذى أكره ، لا يضره ، فأبيت إلا أن أتبعه ، فركبت فرسى فى أثره ، فلما بدا لى القوم ، ورأيتهم عثر بى فرسى ، فذهبت يداه فى الأرض ، وسقطت عنه فعرفت حين رأيت ذلك ، أنه قد منع عنى .. فناديت فى القوم فقلت : أنا سراقة بن جشعم .. أنظرونى أكلمكم .. فوالله لا أريبكم ، ولا يأتيكم منى شىء تكرهونه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر قل له : وما تبتغى منا ؟ فقال ذلك أبو بكر لى قلت تكتب لنا كتابا يكون آية بينى وبينك ، قال اكتب له يا أبا بكر . ثم ألقاه إلى ، فأخذته فجعلته فى كنانتى ، ثم رجعت فسكت ، فلم أذكر شيئا مما كان حتى إذا كان يوم الفتح أى فتح مكة خرجت ومعى الكتاب لألقاه ، فرفعت يدى بالكتاب ، ثم قلت يارسول الله ، هذا كتابك لى ، أنا سراقة بن جشعم ، فقال عليه السلام يوم وفاء وبر ، أدنه ، فدنوت منه فأسلمت ..

ويقول البراء بن عازب رضى الله عنه ، جاء أبو بكر رضى الله عنه إلى أبى فى منزله فاشترى منه رحلا وقال لعازب ، ابعث معى ابنك يحمله إلى فقال لى أبى : احمله فحملته وخرج أبى معه ينتقد ثمنه ، فقال له أبى : يا أبا بكر ، كيف صنعتما ليلة أسريت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال أسرينا ليلتنا حتى قام قائم الظهيرة ، وخلا الطريق فلا يمر فيه أحد ، إذ رفعت لنا صخرة طويلة لها ظل لم تأت عليها الشمس بعد ، فنزلنا عندها ، فأتيت الصخرة فسويت بيدى مكانا ينام فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ظلها ، ثم بسطت عليه فروة . ثم قلت نم يارسول الله ، وأنا أنفض لك ما حولك ، فنام عليه السلام وخرجت أنفض ما حوله فإذا أنا براع مقبل بغنمه إلى الصخرة يريد فيها الذى أردنا ، فقلت لمن أنت يا غلام ، قال لرجل من أهل المدينة ، فقلت أفى غنمك لبن ؟ قال نعم قلت : أفتحلب لى ؟ قال نعم ، فأخذت شاه ، فقلت انفض الضرع من الشعر والتراب

والقذى : ففعل وحلب فى قعب معه ، كثبة من لبن ، ومعى إداوة أرتوى فيها ، فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو نائم ، فكرهت أن أوقظه ، فوقفت حتى استيقظ فصببت على اللبن من الماء حتى برد أسفله ، فقلت : يارسول الله اشرب ، فشرب ، حتى رضيت ثم قال لى : ألم يأن الرحيل ؟ فارتحلنا بعد ما زالت الشمس واتبعنا سراقة بن مالك بن جشعم ونحن فى جلد من الأرض ، فقلت يارسول الله : أتينا ، فقال : لا تحزن إن الله معنا ، فدعا عليه النبى صلى الله عليه وسلم

تلك هى أحاديث القدامى من أصحاب الرسول نلمح من بين خلالها مدى الآلام التى كان يحس بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه لم تكن هناك لحظة واحدة تهدأ فيها أجسامهم ، وتنعم بها نفوسهم

طريق المصلحين شاق طويل ، وألم مرير ، لم يذق الرسول عليه السلام طعم الأمن والراحة ، بل كانت الساعات تمر جمراً متقداً ، يعيش فى ظله كل من تعمقت أسرار الدعوة فى قلبه ، إنه يريدها ناراً تحرق الباطل وسيفا يقضى على الظلم ، إن قلوب المؤمنين تتحرك لهفة وشوقا للرسول العظيم ، الذى يقطع الطريق إليهم فى المدينة ، لقد أوذى قبله ، أولو العزم من الرسل ، ووضع إبراهيم الخليل فى النار مكبلا بالحبال ، فاشتعلت النار فى كل ماحوله ، ومع كل هذا كانت برداً وأمنا وسلاما على إبراهيم . . .

إنها عناية السماء ، وقدرة الله التى أحالت النار إلى برد ، قال تعالى : « قلنا يانار كونى برداً وسلاما على ابراهيم » . فكانت النار برداً وسلاما عليه ، وكانت النجاة . .

فالرسول العظيم ، الذى كان يعلم ما لاقاه الأولون من الرسل ، لم يئن ولم يشك ، ولم يتبرم أو يتضجر ، بل كانت شكايته إلى الله وألمه فى نفسه وبين جوانحه . .

مشى الرسول وصحبه فى جوف الصحراء يلفحهما حر الهجير ، ثم ما يلبثان أن تدركهما وحشة الظلام ، التى تفك الإسار عن الوحوش الضارية فى مهامه لا يعلم مداها إلا الله . .

ليل يسير متباطئا ، ونهار يتحرك متثاقلا . . فهل درى الملوان .

وهل درت الصحارى ، والنجود والسهول ، أن الذى يحب الآفاق ويطوى أستار

الظلام ، ويقتحم الأخطار ، إنما هو أمل الدنيا ، ورحمة من الله للعالمين إنه الرسول العظيم الذى يتحرك فؤاد البشرية كلها للقائه ، وتنتظره الدنيا لينشر بين ربوعها الأمن والعدل والسلام ..

سار عليه السلام فى هذا الجو المكفهر حتى وصل الخرار ، ثم جاز ثنية المرة ثم سلك تقفا ، ثم أجاز مدلجة تقفا ، ثم استبطن مدلجة لجاج ، ثم سلك مرجح محاج ، ثم بطن ذات كشد ، ثم على الحدائد ، ثم على الأذاخر ، ثم بطن ربع ، فصلى بها المغرب ، ثم ذا سلم ، ثم أعدا مدلجة ، ثم العثانية ، ثم جاز بطن القاحة ، ثم هبط العرج ، ثم سلك فى الجدوات ، ثم فى الغابر ، عن يمين ركوبه ، ثم هبط بطن العقيق ، حتى انتهى إلى الجثجانة ، فقال ، من يدلنا على الطريق إلى بنى عمرو بن عوف ، فلا يقرب المدينة ، فسلك على طريق الظبى حتى طالعته عوالى المدينة ، التى كان يخفق فؤادها فى كل لحظة شوقا ولهفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

استقبال وأغان

لقد كانت المدينة بأسرها تنتظر الوقت الذى يلتقون فيه برسول الله صلى الله عليه وسلم ، بما فى ذلك مهاجروهم وأنصارهم .. ولقد كانوا يعلمون أن الرسول عليه السلام ، إذا خرج من مكة لابد وأن تكون وجهته المدينة ، فقد كانت الأخبار تصله عن أهلها وعن مدى ترحيبهم بالدعوة وصاحبها ، رغم ما كان يبدو من معارضات كانت تظهر تارة ، وتخنى أخرى أمام التيار الجارف ، من القلوب المؤمنة التى كانت تقضى على كل من عارضها ووقف فى سبيلها ..

لقد كان لبيعة العقبة أثرها الخالد فى ربط أواصر المحبة بين الرسول وأهل المدينة وذلك فى الاتفاق الذى تم بين الرسول عليه السلام وبين حجاج أهل المدينة ولقد أعطوا عمه العباس ، العهد ، أنه إذا هاجر إليهم أى إلى المدينة ، لابد وأن ينصروه ، ويدافعوا عنه ، ويمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأبناءهم وأزواجهم لقد وجد أهل المدينة جماعات متدفقة من مكة تأتى إليهم عبر الصحراء مهاجرين ، وتلك الجماعات ، هى التى أشار عليها الرسول عليه السلام بالخروج متسللين مستخفين إلى المدينة ، فكانت هذه الطلائع ، نبراسا بقرب هجرة الرسول إليهم فى مدينتهم الفيحاء ..

كان الأنصار والمهاجرون ، ومن فى حوزتهم يخرجون كل يوم بل كل ساعة يستكشفون الطريق ، ويستطلعون الأمر ، لقد كانت القلوب تغمرها المحبة والنفوس تهتف بفرحة اللقاء .. استمرت تلك المظاهر الرائعة من أهل المدينة مدة من الزمن ، يخرجون كل صباح إلى الجهة التى ينتهى إليها طريق القادم من مكة ، ثم لا يرجعون إلى بيوتهم إلا حين يشتد وهج الشمس ، وتكتوى أقدامهم بحرارة الرمال ..

إنه لشعور طيب من أهل المدينة ، وحماس بالغ يبشر بمستقبل الدعوة الزاهر لقد عقدوا العزم على الدفاع عن الدعوة مهما كانت النتيجة .. لقد كان نورها يسرى إلى كل القلوب ، وشعاعها يملأ جنباتهم .. فقد نسى أهل المدينة حرارة الشمس ولهيبها ، ورنت أعناقهم إلى الطريق الذى يقبل منه الرسول فالأحداث تقترب والرسول يسير إليهم .

لقد وقف أحد اليهود فوق بناء عال يصيح بأعلى صوته ، يا بنى قيلة - يعنى جدة الأنصار من الأوس والخزرج - هذا جدكم قد أقبل ، وجاء صاحبكم الذى تنتظرونه .. فهاج القوم وماجوا وراحوا يؤكدون النداء ، ويرسلون أبصارهم عبر الفضاء ، حتى أبصروا الرسول وصحبه ، تصحبهم هيبة من الله وجلال لقد اندفعت الآلاف المؤمنة لتستقبل رسول الإنسانية ، وزعيم الدنيا كلها محمد صلى الله عليه وسلم ..

وجوه مستبشرة ضاحكة ، وقلوب متفتحة مزهرة ، ونفوس راضية مرضية تتجاوب إحساساتها ، وترتفع معنوياتها .. لقد كان الوعد صدقا ، والعهد حقا فليهنأ الرسول ، وليهدأ قلبه ، وليسكن فؤاده .

لقد تفجرت ينابيع الأرض عن أنصار للدعوة بين جنبات المدينة ، وحماة الدين من كل مكان ، تقسم يمين الولاء ، وتعقد العزم على نصرة رسالة السماء إنه الحب ، والحب الأكيد فى الله ولله ..

التقى الرسول بحماة الدعوة وناصريها ، فانعكست على إحساساته كل مظاهر الفرح والسرور ، وانطبعت فى نفسه آيات الأخوة ، وفرحة اللقاء كلهم يريد مصافحته ، وكلهم يريد عناقه وتقبيله ، لقد تزاحمت الجماهير وتدافع الناس يهتفون ويغنون أغانى الخلود ، وينشدون أناشيد النصر الكبير ، الرجال والنساء والصبيان ، الجميع يشدو ويترنم بالتحية والتبجيل والإعزاز ، بمبعوث السماء صاحب الهداية ، ونور من الله للعالمين ..

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة مرحبا يا خير داع

أرواح هائمة فى سماء الحب والجمال ، حب الرسول وجمال اللقاء ، فى يومهم الأغر الجميل ، الذى وعى أناشيد سمع الزمن ، وأصبحت أنغامه ألحان الخلود ..

لقد انتصرت الدعوة ، وقويت شوكتها .. أما آن للرسول أن يجابه بها أهل الشرك فى أماكنهم ... نعم .. سيكون الصراع عنيفا ، والقتال شديداً ، وسترتفع راية الإسلام ، وترتفع مبادىء الدعوة ، لتطغى على كل المبادىء . وسيرفع الله بها قوما ويذل آخرين ، وهذا ما قاله أبو بكر رضى الله عنه حينما دعا أبا سفيان يوما لأمر أنكره منه ، فأخذته الحدة التى كانت تراجعه فى بعض ثورات نفسه ، وأقبل يصيح على أبى سفيان ، وهو يلين له ويسترضيه ، فسأل أبو قحافة ، قائده ، على من يصيح ابنى (يعنى أبا بكر) .؟ فقال : على أبى سفيان ، فدنا أبو قحافة من أبى بكر الخليفة وقال له ـ وفى كلامه شيء من الغبطة أكثر مما فيه من الإنكار وفيه من دهاء الطيبة أكثر مما فيه من سهو الشيخوخة ـ أعلى أبى سفيان تصيح وترفع صوتك يا عتيق ؟ لقد عدوت طورك وجزت مقدارك ، فابتسم أبو بكر رضى الله عنه والصحابة ، وقال لأبيه : يا أبت إن الله رفع بالإسلام قوما ، وأذل به آخرين .

هذا هو الاسلام الذى خلق عظماء الرجال ، وقضى على كل مظاهر الفوضى والسلطان .. وهنا يقول بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . لما سمعنا بمخرج رسول الله من مكة كنا نخرج إذا صلينا الصبح إلى ظاهر حرتنا ننتظر الرسول عليه الصلاة والسلام ، فو الله لا نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال ، فإذا لم نجد ظلا دخلنا ، وذلك فى أيام حارة حتى إذا كان اليوم الذى قدم فيه الرسول عليه الصلاة والسلام جلسنا كما كنا نجلس ، حتى إذا لم يبق ظل دخلنا بيوتنا ، وقدم الرسول عليه السلام حين دخلنا البيوت ، فكان أول من رآه رجل من اليهود ، فصرخ بأعلى صوته ، يابنى قيلة ، هذا جدكم قد جاء ، فخرجنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى ظل نخلة ومعه أبو بكر رضى الله عنه

فى مثل سنه ، وأكثرنا لم يكن قد رأى النبى صلى الله عليه وسلم قبل ذلك ، فلما زال الظل عن رسول الله ، قام أبو بكر وأظل الرسول بردائه ، فعرفنا أنه الرسول العظيم الذى اضطربت حياة الشرك بمقدمه ، وتصدعت صروح الطغيان بدعوته ..

نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم أول ما نزل فى بنى عمرو بن عوف ، فأقام أياما أسس فيها مسجد قباء ، جعله مسجدا عاما جامعا ، بعد أن كان مصلى خاصا لبنى عمرو .

ارتحل عليه السلام يوم جمعة ، فنزل فى بنى سالم بن عوف فخطب فى مصلاهم خطبة الجمعة ، وصلى بهم صلاتها الجامعة فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة ثم امتطى ناقته ، وخلى لها الزمام ، فأخذت تخط به مسالك المدينة ، وكل صاحب بيت من بيوت الأنصار يتعلق بزمام الناقة ، ويدعو الرسول أن ينزل عنده ، وهو يقول لهم : دعوها فإنها مأمورة .. وكان أول ما تكلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة هو قوله : « ياأيها الناس أفشوا السلام . وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » ، تلك هى مبادىء الدين ، مبادىء المحبة والاخوة والسلام ، تظهر من أول تصريح لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة لقد سارت الناقة والرسول فوقها ، وكأنها كانت تقرأ صفحات الغيب ، لقد أبان الرسول لقومه أنها مأمورة ، وستمضى فى طريقها المرسوم .. فبركت الناقة فى مربد كان يملكه غلامان من الأنصار ، ـ فى حى بنى النجار أخوال عبد المطلب جد الرسول صلوات الله وسلامه عليه ـ فلما بركت لم ينزل الرسول عليه السلام ، وثبت ، فسارت غير بعيد والرسول واضع لها زمامها لا يثنيها به ، ثم التفتت إلى خلفها ، فرجعت إلى مبركها أول مرة ، فبركت فيه ، فنزل عنها ، وسأل عن المربد لمن هو؟ فقال له معاذ بن عفراء هو لسهل وسهيل ابنى عمرو ، وهما يتيمان لى وسأرضيهما منه ، فأمر عليه السلام أن يبنى فيه مسجد ، ثم نزل عند أبى أيوب حتى تم بناء المسجد ، والمسكن ، والمسلمون جميعا من مهاجرين وأنصار يقيمونه بسواعدهم وهم يرددون :

هذا الحمال لا حمال خيبر هذا أبر ربنا وأطهر

ثم يقولون أيضا :

اللهم إن الأجر أجر الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة

تجمع المهاجرون والأنصار عند الرسول عليه السلام حتى لم يبق بمكة منهم أحد إلا مفتون ، أو محبوس ...

لقد ترك القوم ديارهم ، وأموالهم بمكة ، ليس فيها ساكن ـ وذلك ابتغاء الله ورسوله ... وكان أول المهاجرين الذين وصلوا إلى المدينة هم : أبو بكر بن عبد الأسد ، ثم عامر بن ربيعة ، ومعه امرأته ليلى بنت أبى خيثمة .. وكان سالم مولى أبى حذيفة يؤم المهاجرين بقباء ، قبل أن يقدم الرسول عليه السلام .. وكان هناك جماعة آخرون سموا مهاجرين أنصاريين ، وهم : ذكوان بن عبد قيس وعقبة بن وهب بن كلدة والعباس بن عبادة بن نضلة .

يقول شرحبيل بن سعد : ركب الرسول عليه السلام ناقته ، وأخذ عن يمين الطريق ، ثم مضى حتى انتهى إلى المسجد ، فبركت ناقته فجعل الناس يكلمون الرسول عليه السلام فى النزول عليهم ، وجاء أبو أيوب خالد بن زيد بن كليب ، فحط رحله ، فأدخله منزله فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (المرء مع رحله) .

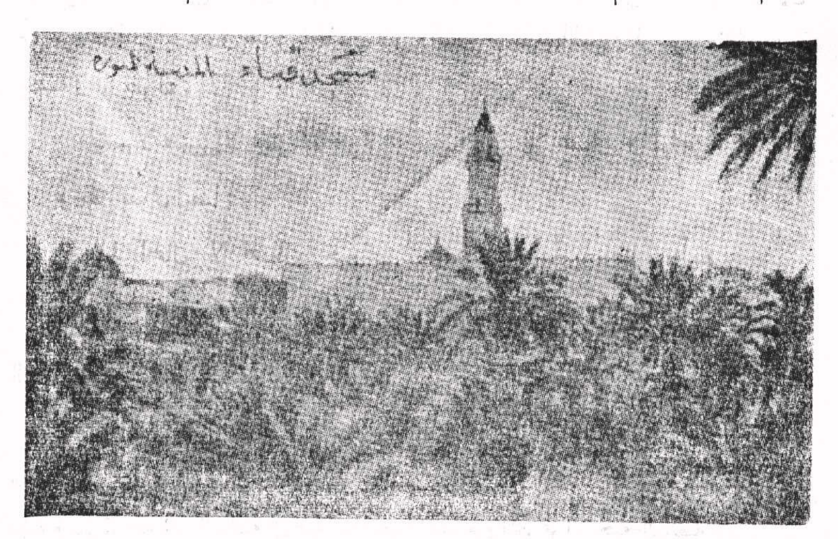
وجاء أسعد بن زرارة ، فأخذ بزمام راحلة رسول الله ، فكانت عنده ، قال زيد بن ثابت ، فأول هدية دخلت على الرسول فى منزل أبى أيوب – هدية دخلت بها ، إناء قصعة ، مثرودة فيها خبز وسمن ولبن فقلت أرسلت بهذه القصعة أمى فقال عليه السلام بارك الله فيك ، ودعا أصحابه فأكلوا ، فلم أرم الباب حتى جاءت قصعة سعد بن عبادة ثريد وعراق ، وما كان من ليلة إلا وعلى باب رسول الله الثلاثة والأربعة يحملون الطعام ، يتناوبون ذلك حتى تحول الرسول من منزل أبى أيوب ، وكان مقامه فيه سبعة أشهر ، وبعث الرسول عليه السلام من منزل أبى أيوب ، زيد بن حارثة ، وأبا رافع ، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم إلى مكة ، فقدما عليه بفاطمة وأم كلثوم ابنتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسودة بنت زمعة زوجته ، وأسامة بن زيد ، وكانت رقية بنت رسول الله قد هاجر بها زوجها عثمان بن عفان قبل ذلك ، وحبس أبو العاصى بن الربيع امرأته زينب بنت الرسول عليه السلام ، وحمل زيد بن حارثة امرأته أم أيمن مع ابنها أسامة بن زيد ، وخرج عبد الله بن أبى بكر معهم بعيال أبى بكر فيهم عائشة ، فقدموا المدينة ، فأنزلهم فى بيت حارثة بن النعمان

سياسة الرسول عليه السلام فى المدينة

لقد استقر المصطفى عليه السلام فى المدينة فطابت نفسه ، وسكن خاطره فعمل على تبليغ الوحى الذى كان ينزل عليه خاصا بالشئون التشريعية ، ثم وجه عنايته إلى ربط أواصر المحبة والأخوة بين المهاجرين والأنصار .. بين المهاجرين الذين تركوا أهلهم بمكة ، وبين الأنصار — وهم الأوس والخزرج — الذين نصروا الرسول ودينه ومنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم .

لقد قوى الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، أواصر المحبة والأخوة بينهم ، وأقام العلاقات على أسس قوية سليمة ، ومن أشهر تلك الأعمال ما يأتى :

١ — إنشاء المساجد : لقد تكلمنا قبلا ، عن الصعاب التى كان يلاقيها الرسول عليه السلام عند دعوته ، فلم يكن ميسراً له أن يظهر دينه ، أو يبنى بيتا يقيم فيه شعائره ..



فلما حانت الفرصة بنى مسجدا فى قباء ، وصلى فيه بمن معه من المهاجرين والأنصار ، ثم بنى مسجده عند مبرك ناقته أمام دار أبى أيوب ، وعمل فيه النبى عليه السلام بنفسه حتى تم بناؤه .. وكان الناس يتجهون فيه إلى بيت المقدس ، ثم بعد ذلك حولت إلى البيت

الحرام ، بعد أن رأى الرسول أن اليهود تتجه الى بيت المقدس — فقلب محمد عليه السلام نظره فى السماء يريد تحويل القبلة ، مخالفا بذلك اليهود ، كما يقول الله تعالى فى كتابه الكريم « قد نرى تقلب وجهك فى السماء ، فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » .

كان هذا المسجد المقام فى المربد الذى وهبه الغلامان للرسول الذى أبى بدوره إلا أن يدفع ثمنه . .

قال معمر عن الزهرى ، كان فى المربد جدار مجدد ليس عليه سقف ، وقبلته إلى بيت المقدس ، وكان أسعد بن زرارة بناه ، فكان يصلى بأصحابه فيه قبل مقدم الرسول إلى المدينة ، فأمر بالنخل الذى فى الحديقة ، وبالغرقد الذى فيه أن يقطع ، وأمر باللبن فضرب ، وكان فى المربد قبور جاهلية ، وأمر بها فنبشت ، وبالعظام أن تغيب ، وكان فى المربد ماء مستنجل فسيروه حتى ذهب وأسسوا المسجد فجعلوا طوله مما يلى القبلة إلى مؤخره مائة ذراع ، وفى هذين الجانبين مثل ذلك ، ثم بنوه باللبل والرسول ينقل معهم بنفسه وهو يقول :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

وجعل يقول أيضا :

هذا الحمال لا حمال خيبر هـذا أبر ربنا وأطهر

فلما فرغ من البناء ، بنى بعائشة ، وجعل صلى الله عليه وسلم زمعة فى بيت آخر غير البيت الذى توجد فيه عائشة :

عن البراء بن عازب أنه قال : صلى رجل مع النبى صلى الله عليه وسلم ؛ ثم خرج بعد ماصلى ، فمر على قوم من الأنصار يصلون العصر ، نحو بيت المقدس فأخبرهم أنه صلى الله عليه وسلم توجه نحو الكعبة فى صلاته فتحول القوم وانحرفوا ناحية الكعبة .

استمرت الصلاة إلى بيت المقدس سبعة عشر شهرا .

ثم أنشىء مسجد الفتح ، الذى قام فى مكانه يدعو على الأحزاب فى غزوة الخندق ،

فاستجاب الله دعاءه ، وأرسل عليهم ريحا كفأت قدورهم وقلعت خيامهم ، وجنودا لم يروها ، فانخذلوا ورحلوا

ثم أنشأ مسجد الاجابة ، وسبب تسميته بذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل ذات يوم من العالية ، ودخل المسجد ، فركع ركعتين ، وصلينا معه ، ودعا ربه طويلا ، ثم انصرف الينا ، فقال : سألت ربى ثلاثا فأعطانى اثنتين ، ومنعنى واحدة ، سألته ألا يهلك أمتى بالسنة فأعطانيها ، وسألته ألا يهلك أمتى بالغرق ، فأعطانيها ، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فأبى على .

٢ — المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار : لقد أصبح المهاجرون والأنصار أمة واحدة ، جمعهم رباط الدين الحنيف ، فعمل الرسول على تآخيهم ، فتآخى الرسول عليه السلام هو وعلى بن أبى طالب ، وتآخى عمه حمزة ومولاه زيد أخوين ، وكان أبو بكر وخارجة بن زيد أخوين ، وكان عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك الخزرجى أخوين .

عن ابراهيم بن سعد عن أبيه عن جده قال ، لما قدموا المدينة آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن الربيع ، قال لعبد الرحمن إنى أكثر الأنصار مالا ، فاقسم مالى نصفين ، ولى امرأتان ، فانظر أعجبهما إليك ، فسمها لى أطلقها ، فإذا انقضت عدتها فتزوجها ، فقال : بارك الله لك فى أهلك ومالك ، أين سوقكم ؟ فدلوه على سوق بنى قينقاع ، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن ، ثم تابع الغدو .

ثم جاء يوم وبه أثر صفرة ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم (مهيم) — أى ما هذا — قال تزوجت ، قال : كم سقت إليها ، قال : نواة من ذهب أو وزن نواة من ذهب (شك من الراوى)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال — قالت الأنصار اقسم بيننا وبينهم النخل قال : لا — قال يكفونا المؤونة ، ويشركونا فى الثمر قالوا سمعنا وأطعنا (اخرجه البخارى)

لقد بذل الأنصار كل ما يملكون للمهاجرين ، فكانوا موضع حب الرسول وثقته حتى أنهم أصبحوا من أحب الناس إليه ، فعن أنس رضى الله عنه قال : جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعها صبى لها ، فكلمها الرسول عليه السلام فقال : والذى نفسى بيده إنكم أحب الناس إلى .

وعن البراء بن عازب رضى الله عنه قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : الأنصار لايحبهم إلا مؤمن ، ولا يبغضهم إلا منافق ، فمن أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله . .

لقد دعا النبى عليه السلام للأنصار فقال : عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله علية وسلم ، لاعيش إلا عيش الآخرة فاصلح الأنصار والمهاجرة (رواه البخارى)

وعن أنس أيضا قال : كانت الأنصار يوم الخندق تقول :

نحن الذين بايعوا محمداً   على الجهاد ماحيينا أبدا

فأجابهم :

اللهم لاعيش إلا عيش الآخرة   فأكرم الأنصار والمهاجرة

تلك هى منزلة الأنصار فى نفس الرسول عليه السلام ، إنهم فى قلبه وفى فؤاده ولم تكن محبتهم فرضا ، وهم الذين فتحوا قلوبهم وبيوتهم للرسول وأتباعه ، وناصروه وآزروه ، وأقاموا رسالته بين ربوع الحياة حتى عمت جوانب الدنيا .

بهذه المؤاخاة ازدادت وحدة المسلمين وقويت ، وضرب الأنصار بذلك أروع الأمثلة فى الوفاء والاخلاص ، والتضحية وإنكار الذات، قال الله تعالى : « والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولايجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون »

إن الحديث عن الأنصار ، هو الحديث عن قلب الاسلام الخفاق وروحه الوثاب . . هو الحديث عن اعتلاء شأن الاسلام ، وعزة المسلمين ، ورفعة الدين فى نفوس العرب والأمم كافة . .

وما أحوجنا ، ونحن فى خضم تلك الذكرى العطرة الى رجالات كالأنصار فى صفاتهم ، وأخلاقهم ، وتضحياتهم ، التى حفظها لهم التاريخ بين صفحاته العاطرة . . ان اليوم الذى يعود فيه التاريخ الاسلامى سيرته الأولى ، ويقدم فيه المسلم إلى حياض الموت غير هياب ، ولا وجل مرددا قول الأنصارى الكريم :

ولست أبالى حين أقتل مسلما   على أى جنب كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الاله وإن يشأ   يبارك على أوصال شلو ممزع

لهو اليوم الذى يعتز به الاسلام والمسلمون .

واننا لنعجب بل ونفخر من قول الأنصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم بايعنا يارسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب ، وأهل الحلقة ، ورثناها كابراً عن كابر ..

ويقول الآخر يارسول الله ، إن بيننا وبين الرجال ـ أى اليهود ـ حبالا نحن قاطعوها فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا ، فيبتسم الرسول عليه السلام ، ويقول بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنتم منى وأنا منكم ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم ..

ألم يقل الأنصارى يامعشر الخزرج علام تبايعون هذا الرجل إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا أنهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتلا اسلمتموه فمن الآن فدعوه ، فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال ، وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة .

لقد قام الأنصار بالجليل من الأعمال ، فهم الذين خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة بدر ، ولم يكونوا بايعوه على القتال خارج مدينتهم . فيستشير الرسول صلى الله عليه وسلم الناس فى أمره ويخبرهم بما بلغه من قريش ، فيدلى أبو بكر وعمر برأيهما ، فيعرض عنهما الرسول عليه السلام ثم يقول أشيروا على أيها الناس ـ يعنى الأنصار ـ فلما أحس الأنصار أنه يريدهم وكان سعد بن معاذ صاحب رايتهم ، ومعقد لوائهم ..

التفت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : لكأنك تريدنا يارسول الله ؟ قال : نعم ، قال سعد : لقد آمنابك وصدقناك ، وشهدنا أن ماجئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض لما أردت ، فنحن معك ، فوالذى

بعثك بالحق نبيا ، لو استعرضت بنا هذا البحر لخضته لخضناه معك ، وما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلق بنا عدونا غدا . . إنا لصبر فى الحرب ، صدق فى اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر على بركة الله . . ولم يكد سعد يتم كلامه حتى أشرق وجه الرسول ، وبدأ عليه البشر وقال سيروا وأبشروا ، فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم . .

هؤلاء هم الأنصار الذين أحدثوا انقلابا فى التاريخ الإسلامى بل وفى تاريخ البشرية كلها ، أولئك الذين نصروا الله فى دينه ، ونصروا رسوله فى دعوته فسماهم الله بأشرف الأسماء ، وانعم عليهم بأنبل الألقاب تخليدا لبطولتهم ، وإشادة بفضل أعمالهم ، وتشريفا لتاريخهم ، كانت فيها عزائم صنعها الإيمان ، فأحبت الموت فى سبيل العقيدة فوهبت لها الحياة .

لقد كتب الأنصار لأنفسهم فى تاريخ الدعوة صحائف وهاجة تنير الطريق أمام التائهين فى الحياة ، فلهم فى كل أحداث الإسلام مواقف تجعلهم مثلا للرجولة العليا ، التى ينشدها المسلمون فى حاضرهم ، ليستعيدوا مجدهم الغابر ، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها . .

٣ — موادعة اليهود :

لقد تحرك الحقد فى نفس اليهود الذين كانوا يتحينون الفرص لايجاد الخلاف بين الرسول وأهل المدينة ، بل وبين المسلمين بعضهم مع بعض من مهاجرين وأنصار ، فقضى الرسول عليه السلام على كل تلك الفتن ، وأقرهم على دينهم ، وأموالهم ، وصالحهم على ترك الحرب ، والأذى وألا يعينوا عليه أحداً ، ثم وادع المشركين من الأوس والخزرج مثل ما وادع به اليهود ، وقبل إسلام من تظاهر منهم بالاسلام ثم نافق فيه ، وأبطن الكفر . . وبهذا أصبح المسلمون فى المدينة أمة واحدة وبقى للعشائر استقلالها ، وعاداتها الأولى ، فى الديات ، وفداء الأسرى ولكن على المسلمين جميعا أن يعينوا من ثقلت عليه دية أو فداء .

لكن اليهود . . . وهم الذين كانوا يترقبون ظهور الرسول لكى ينتصروا به على مناوئيهم من أهل وطنه المشركين عبدة الأوثان ـ سرعان ما نقضوا العهد ، وصاروا أعداء

مقيمين ، أشد عداوة على المسلمين ، وأعظم فتنة عليهم من أهل مكة المشركين ، فكان لابد من كسر شوكتهم ، وتطهير المدينة منهم ، وقد مكن الله لرسوله منهم ونصره عليهم - وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم .

مشروعية الأذان

كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، يعلم أن المرحلة مرحلة بناء ، وتشييد بناء فى القلوب ، وتثبيط فى النفوس ، حتى يصبح المسلمون جميعا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا .. فلقد فرضت الصلاة ، والزكاة ، وفرض الصوم ، وأقيمت الحدود ، وشرعت أمور الحلال ، وحرمت أمور الحرام .

فالصلاة ، وهى إحدى عمد الدين الحنيف ، والتى يجتمع الناس لها جماعات جماعات .. لابد لها من علامة أو إشارة تعطى الدليل على أن ميعادها قد قرب ، فاجتمع الرسول مع صحابته ليفكروا فى ، كيف يجتمع المسلمون للصلاة .. فقال بعضهم .. إننا نتخذ بوقا كبوق اليهود الذين يدعون به لصلاتهم ، فكرهه صلى الله عليه وسلم . . وقال بعضهم ، نتخذ الناقوس فنضرب به للصلاة فكرهه أيضا . . تفرق النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وفكرة جمع الناس إلى الصلاة تشغل اذهانهم . . وبينما هم على هذا الحال إذ رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه ، أخو بلحارث بن الخزرج - النداء - فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عبد الله ، يارسول الله ، انه طاف بى هذه الليلة طائف ، مر بى رجل عليه ثوب أخضر ، يحمل ناقوسا فى يده ، فقلت ياعبد الله أتبيع هذا الناقوس ، قال وماتصنع به ؟ قلت . ندعو به الى الصلاة ، قال : أفلا أدلك على خير من ذلك - أو من هذا - قلت وما هو ، قال : تقول - الله أكبر الله أكبر - الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله ، حى على الصلاة ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، حى على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انها لرؤيا حق ان شاء الله فقم مع بلال ، فألقها عليه ، فليؤذن بها ، فإنه أندى صوتا منك فلما أذن بها بلال ، سمعها عمر بن الخطاب ، وهو فى بيته ، فخرج الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يجر رداءه ، وهو يقول : يانبى الله ، والذى بعثك

بالحق لقد رأيت مثل الذى رأى ، فقال رسول الله صلى عليه وسلم فلله الحمد على ذلك . .

ويقول عبد الله بن زيد الأنصارى : استشار الرسول عليه السلام ، الناس فى الأذان فقال :« لقد هممت أن أبعث رجالا ، فيقومون على آكام المدينة فيؤذنون الناس للصلاة ، حتى هموا أن ينقسموا قال فأتيت أهلى فقالوا ألا نعشيك، قال لا أذوق طعاما فإنى قد رأيت نبى الله صلى الله عليه وسلم، قد أهمه أمر الصلاة ، فنام فرأى فى المنام ، كأن رجلا عليه ثياب خضر وهو قائم على سقف المسجد ، فأذن ، ثم قعد قعدة ، ثم قام ، فأقام الصلاة ، قال فقمت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبرته بالذى رأيت ، فأمر الرسول عليه السلام ، بأن يعلم بلال ، ففعل ، فأقبل الناس لما سمعوا ذلك ، وجاء عمر بن الخطاب ، فقال يارسول الله لقد رأيت الذى رأى ، فقال له الرسول عليه السلام : فما منعك أن تأتينى ، قال استحيت لما رأيتنى قد سبقت يارسول الله .

تلك هى آيات النصر ، وعلامات الانتصار لدعوة جديدة بشر بها رسل أولون ، بقى على دينهم عدد غير كثير ، وهذا العدد من الناس الذين كانوا يسكنون المدينة ، بقايا من حملت الديانات التى حرقت على عهدهم فلقد أخفوا الحقد ، والضغينة ، لما خص الله تعالى العرب بأن يكون نبيهم منهم ، وبعد أن انضاف إليهم أيضا ، رجال من الأوس والخزرج ممن كانوا على جاهلية ، فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث ، إلا أن الاسلام ، قهرهم بظهوره ، واجتماع قومهم عليه فظهروا بالاسلام ، واتخذوه جنة من القتل ، ونافقوا فى السر ، وكان هواهم مع « يهود » ، لتكذيبهم النبى صلى الله عليه وسلم ، وجحودهم الاسلام .

وكانت أحبار يهودهم الذين يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتعنتونه ، ويأتون باللبس ، ليلبسوا الحق بالباطل ، فكان القرآن ينزل فيهم فيما يسألون عنه إلا قليلا من مسائل الحلال والحرام وكان المسلمون يسألون عنها .

ونحب أن نورد هنا ما قاله ابن سلام وهو عبد الله ، وكان يومئذ عالما بأخبار العرب ودياناتهم ، وما سيأتى به الزمن من رسول يسمى (محمد عليه السلام) فيقول عبد الله : لقد عرفت صفة الرسول ، واسمه ، وزمانه ، فكنت أكتم كل تلك المعانى فى نفسى حتى

لا يتسرب أمرها إلى اليهود الذين كانوا يستنكرون بعثه ، ظللت على هذا الحال حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فلما نزل بقباء ، عند بنى عمرو بن عوف ، إذ أقبل علينا رجل أخبرنا بقدومه ، وأنا على رأس نخلة لى أعمل فيها ، وعمتى خالدة بنت الحارث تحتى جالسة ، فلما سمعت الخبر بقدومه صلى الله عليه وسلم كبرت من فوق الشجرة ، فقالت لى عمتى حين دوى التكبير فى أذنها : خيبك الله يا ابن سلام ، والله لو كنت سمعت بموسى ابن عمران قادما ما زدت فقلت لها : يا عمة ، إن هذا المبعوث الذى أخبرنا به الأنبياء والسابقون ، إنما هو اخو موسى بن عمران ، وعلى دينه ، جاء بما جاء به موسى ، فقالت ، ياابن أخى ، أهو النبى الذى كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة ؟ فقلت لها ، نعم ، فقالت ، فذاك إذن ، قال : ثم خرجت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعلنت إسلامى ، ثم رجعت إلى أهل بيتى فأسلموا ..

ولقد كتمت يومها إسلامى من يهود — ثم ذهبت إلى الرسول عليه السلام فقلت له يا نبى الله ، إن يهود قوم بهت ، وإنى أحب أن تدخلنى فى بعض بيوتك ، وتخفينى عنهم ، ثم تسألهم عنى ، حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامى ، فإنهم إن علموا به بهتونى ، وعابونى ، فأدخلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى بعض بيوته ، ثم قال لهم ، أى رجل الحصين بن سلام فيكم ؟ قالوا : سيدنا ، وابن سيدنا ، فلما انتهوا من كلامهم خرجت عليهم ، فقلت لهم ، يا معشر يهود ، اتقوا الله ، واقبلوا ما جاءكم به ، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله حقا ، جاءتكم بذكره التوراة ، فسمته ووصفته ، فإنى أشهد أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقد آمنت به وصدقته فى كل ما جاء به ، فقالوا كذبت ، ثم وقعوا بى فقلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بهت ، أهل غدر وخداع ، فاظهرت إسلامى ، وإسلام أهل بيتى ، وأعلنت عمتى بنت الحارث إسلامها يومئذ ، والرسول عليه السلام حاضر بيننا ..

لقد وصل صلوات الله وسلامه عليه المدينة ، وفيها بعض من المنافقين ، وكان بأهلها ، حمى منتشرة حتى قال بعض المؤرخين ، إنها كانت أوبأ أرض الله من الحمى ، حتى أن أصحاب الرسول عليه السلام ، قد أصابهم شرها ، وحل بهم خطرها .. وتقول السيدة عائشة رضى الله عنها : لقد أصاب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بلاء

شديد من الحمى ، قالت ، كان أبو بكر ، وعامر بن فهيرة ، وبلال ، موليا أبى بكر ، مع أبى بكر فى بيت واحد ، فدخلت عليهم ، وقد سرت إليهم الحمى ، وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب ، وبهم ما لا يعلم إلا الله ، من شدة الوعك ، فدنوت من أبى بكر ، فقلت له : كيف تجدك يا أبت . فقال :

كل امرىء مصبح فى أهله والموت أدنى من شراك نعله

فقلت والله ، ما يدرى أبى ما يقول : قالت ثم دنوت إلى عامر بن فهيرة ، فقلت له ، كيف تجدك يا عامر .

فقال :

لقد وجدت الموت قبل ذوقه إن الجبان حتفه من فوقه

فقلت والله ، ما يدرى عامر ماذا يقول ، قالت ، وكان بلال إذا تركته الحمى ، اضطجع بفناء البيت ، ثم رفع عقيرته فقال :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بواد وحولى إذخر وجليل

قالت عائشة : ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت إنهم ليهذون ومايعقلون من شدة الحمى ، فقال : اللهم حبب الينا المدينة كما حببت الينا مكة أو أشد ، وبارك لنا فى مدها وصاعها ، وانقل وباءها الى مهيعة .

لقد أقام الرسول عليه السلام بقية شهر ربيع الأول ، لأنه قدم اليها لثنى عشرة ليلة ، مضت من شهر ربيع الأول .. وشهر ربيع الآخر ، وجمادين ، ورجبا ، وشعبان ، وشهر رمضان وشوالا وذا القعدة وذا الحجة والمحرم ، ثم خرج غازيا فى صفر على اثنى عشر شهرا من مقدمه المدينة .

كفاح مستمر

كانت الرسالة التى كلف بها الرسول العظيم ، أمراً خطيرا ، واى خطر أقوى وأعظم من خطر الدعوة المحمدية ، فمنذ أن وصل الى المدينة مهاجراً ، وهو يعمل على نشر مبادىء الدين ، ورفع راية الإسلام ، فهو قد آخى ، وأقام المساجد وعاهد اليهود ، ليؤمن الجو الذى يعيش فيه ، وهل هناك عمل إذن بعد الهجرة .. نعم - إنه عمل شاق مرير .. لقد

أوذى الرسول فى مكة ، وخرج منها مكرها ، فى ظل المؤامرات والفتن والدسائس ، ولم يستطع نشر الدعوة فيها ، لأن القوم غلف قلوبهم ، متصلبة أفئدتهم ، فكانت هجرته إلى المدينة التى وجد فيها الأنصار ، وهم نعم العون والنصير ، ولن ننسى أبداً ، أو يغيب عن أذهاننا ما قاله صلوات الله وسلامه عليه يوم أن خرج من مكة لا رضا منه بل فراراً من اضطهاد المشركين ـ والله إنك لأحب بلاد الله تعالى إلى ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت أبداً ، فإننا نلمح من بين هذا الكلام .. أن الرسول لم يكن يريد الخروج ، لأنها كانت أحب بلاد الله إليه ، غير أن داعى الرسالة ، كان أعظم ، فهو لم ينس مكة وهو بالمدينة ، ولم ييأس من الرجوع إليها ، فلقد أهلته الأحداث فيما بعد إلى دخولها ، ظافرا منتصراً ..

وهنا نقف قليلا لكى نوجز النشاط الذى قام به الرسول فى صورة موجزة ، وجعلناها موجزة ، لأن بحثنا هذا يهتم بتكييف الحوادث التى تكشف لنا عن الصورة الحقيقية للأحداث الجسام التى مهدت الدخول بعد أن كشفنا عن الأسباب التى خرج منها وهاجر الى المدينة ...

لم تكن هناك لحظة واحدة يذوق فيها الرسول طعم الراحة ، فلقد تجمع الناس حوله من كل مكان . وأتت اليه الوفود من جميع الأصقاع ورحلت اليه القبائل ، لتسمع ، وتعمل ، وتعى ما تقول وتفهم ...

انه لنبى جديد ، جاء بدعوة جديدة ، فريدة فى عقد الزمن ، فكانت هذه الأفكار تراود نفس كل عربى ، تأصلت فيه غريزة حب الاستطلاع لمعرفة هذا الرسول صاحب رسالة نزلت من السماء ..

التفت الناس حول الدعوة جمعتهم مبادئها ، وأظلتهم معانيها ، فخاضوا غمارها ، وساروا فى طريقها ، فامتزجت بدمائهم ، وحلت بقلوبهم ، فازدادوا بها استمساكا ..

كان هذا الجمع الكثير من المؤمنين ، ذا شوكة قوية بالمدينة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم يتطلع إلى حياة أوسع تسير فيها الدعوة فأخذ يكتب الى الملوك ، ورؤساء القبائل ، فى صحائف يدعوهم فيها الى الاسلام ، وترك عبادة الأوثان ، والاعتراف بالله وحده والاقرار بأن محمداً رسوله ... وقد بلغ عدد هذه الكتب أكثر من تسعين

كتابا ، فنهم من كان يرد ردا جميلا ويسلم ، ومنهم من كان يرد ردا غير جميل ، ولا يسلم ، ومنهم من كان يرد رداً جميلا ولا يسلم خوفا على ملكه ، ونحن إذا استعرضنا على سبيل المثال بعض تلك الكتب ، لوجدنا مثلا أن الرسول عليه السلام قد بعث بكتابين إلى النجاشي مع عمرو بن أمية الضمرى ، وكتب فى أحدهما يدعوه فيه إلى الاسلام ، ويتلو عليه القرآن ، فأخذ النجاشي كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووضعه على عينيه ، ونزل من سريره ، فجلس على الأرض تواضعا ، ثم أسلم ، وشهد شهادة الحق ، وقال لو كنت أستطيع أن آتيه لأتيته ، ثم كتب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بإجابته وتصديقه ، واسلامه ، وكان الرد مع جعفر بن أبى طالب وكان فى الكتاب الآخر ، الذى كتبه الرسول عليه السلام إلى النجاشي يأمره أن يزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب وكانت قد هاجرت إلى أرض الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش الأسدى ، فتنصر هناك ومات ، وأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يبعث اليه بمن قبله من أصحابه ، ويحملهم ففعل ، فزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان وأصدق عنه أربعمائة دينار ، وأمر بجهاز المسلمين ، وما يصلحهم ، وحملهم فى سفينتين مع عمرو بن أمية الضمرى ، ودعا بحق من عاج فجعل فيه كتابى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : لن تزال الحبشة بخير ما كان هذان الكتابان ، هذا مثل من أمثلة أصحاب الكتب الذين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسلها إليهم .

كان المثال الثانى ـ كان بعض الملوك يرد ردا جميلا ولا يسلم مثل المقوقس ، صاحب الاسكندرية ، وعظيم القبط ، كتب إليه عليه السلام . يدعوه إلى الاسلام ، وما إن وصل رسول رسول الله ، حتى أخذ المقوقس الكتاب ، ووضعه فى حق من عاج وختم عليه ، ورفعه إلى جاريته ، وكتب إلى النبى صلى الله عليه وسلم يقول : قد علمت أن نبيا قد بعث ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك ، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم ، وقد أهديت لك كسوة ، وبغلة تركبها ـ ولم يزد المقوقس على ذلك ـ غير أنه لم يسلم . . . فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم هديته ، وأخذ الجاريتين ، إحداهما ، مارية أم ابراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأختها سيرين ، وبغلة بيضاء ، لم يكن فى العرب مثلها ، وهى دلدل ، وقال الرسول عليه السلام ضن الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه ، وكان هناك صنف ثالث من الرؤساء . .

وهذا هو المثال الثالث ـ من مراسلته صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والرؤساء ، فلقد كتب عليه السلام إلى مسيلمة الكذاب ـ لعنه الله ـ يدعوه فيه إلى الإسلام ، وبعث به مع عمرو بن أمية الضمرى ، فكتب مسيلمة جواب كتـــابه ، ويذكر فيه أنه نبى مثله ويسأله أن يقاسمه الأرض ، ويذكر فيه أن قريشا ، قوم لا يعدلون ، فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال إلعنوه لعنه الله ، وكتب إليه بلغنى كتابك الكذب ، والافتراء على الله ، وإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين ، والسلام على من اتبع الهدى ، وبعث الرسول الرد مع السائب بن العوام أخى الزبير بن العوام .

تلك هى صور مختلفة من الناس فى عالم مضطرب ، تدهورت فيه العقائد ، وكثرت الأرباب التى اتخذها الطغاة من دون الله فترة من الكفاح إذن يتجدد فيها الجهاد يوما بعد يوم ـ فلقد قلنا إن الوفود جاءت إليه لتصغى إلى حديثه ، وتتذوق من جديد حلاوة الايمان العميق ، فلقد حضر إليه وفد من مضر وكان تعداده أربعمائة من مزينة ، وكان ذلك فى رجب سنة خمس من الهجرة ، فجعل لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الهجرة فى دارهم ، وقال لهم أنتم مهاجرون حيث كنتم ، فارجعوا إلى أموالكم ، وكان فيهم خزاعى بن عيدنهم ، فبايعه على قومه مزينة ، وقدم معه عشرة فيهم بلال بن الحارث ، والنعمان بن مقرن ، وأبو أسماء ، وأسامة وغيرهم ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت ، وقال له ، اذكر خزاعيا ولاتهجه ، فقال حسان بن ثابت :

ألا أبلغ خزاعيا رسولا   بأن الذم يغسله الوفاء
وأنك خير عثمان بن عمرو   وأثناها إذا ذكر الثناء
وبايعت الرسول وكان خيرا   إلى خير وأداك الثراء
فما يعجزك أو مالا تطقه   من الأشياء لا تعجز عداء

فقام خزاعى ، فقال : ياقوم : قد خصكم شاعر الرجل ، فأنشدكم الله ، قالوا : فإنها لاتنبو عليك ، قال وأسلموا .. ووفدوا على النبى صلى الله عليه وسلم ، فرفع الرسول لواء مزينة يوم الفتح إلى خزاعى : وكان يومئذ ألف رجل .

لقد طبقت دعوة الرسول الآفاق ، وسار بها الركبان ، وهو فى المدينة التى تفتحت زهور الاسلام فى حدائقها ، ونمت براعم العظمة فى رجالها ..

فلقد أصبح عدد الوفود أكثر من سبعين وفداً كلهم يريد الايمان وكلهم يعبر للرسول عن فرحته ، وحبه له ولدينه الجديد .. وكان فى خضم تلك الوفود التى جاءت من أقصى البلاد تسعى ، وفد جهينة بزعامة عبد العزى بن بدر .. فقال الرسول عليه السلام لعبد العزى : أنت عبد الله ، ولأبى روعة ، أنت رعت العدو إن شاء الله وقال من أنتم ، قالوا : بنو غيان ، قال : أنتم بنو رشدان ، قال عمرو بن مرة الجهنى ، كان لنا صنم ، وكنا نعظمه ، وكنت سادنه فلما سمعت بالنبي عليه السلام ، كسرته وخرجت ، حتى قدمت المدينة إليه ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق ، آمنت بما جاء به من حلال وحرام ..

شهدت بأن الله حق وأننى ... لآلهة الأحجار أول تارك
وشمرت عن ساق الازار مهاجرا ... إليك أجوب البعث بعد الدكادك
لأصحب خير الناس نفسا ووالداً ... رسول مليك الناس فوق الحبائك

ثم بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى قومه يدعوهم الى الاسلام فأجابوه الا رجلا واحداً رد عليه قوله ، فدعا عليه عمرو بن مرة فسقط فوه فما يقدر على الكتاب ، واحتاج .

تلك هى الوفود التى فتح الله قلبها للإيمان . وهيأ نفوسها لمحبة الإسلام .. إنها تعبيرات صادقة لما يدور فى خلجاتهم . وآيات طيبة فى حياتهم . لقد أراد الله بهم خيرا . فألهمهم السفر . وتحمل وعثاء الطريق . ليصلوا إلى مآربهم . وليشبعوا رغباتهم .. لقد كانت التحيات المباركات للأقوام هى السمات الطيبة التى يخاطبون بها الرسول عليه السلام .. فلقد حضر إليه وفد آخر ؛ وهو وفد سعد العشيرة .. يقول هشام بن محمد . لما سمع القوم بخروج النبي صلى الله عليه وسلم وثب ذباب ـ وهو رجل من بنى أسد الله بن سعد العشيرة إلى صنم لسعد العشيرة . يقال له قراض لحطمه . ثم وفد إلى النبي صلى الله عليه وسلم . وأسلم ثم قال :

تبعت رسول الله إذ جاء بالهدى ... وخلفت قراضا بدار هوان
شددت عليه شدة فتركته ... كأن لم يكن والدهر ذو حدثان
فلما رأيت الله أظهر دينه ... أجبت رسول الله حين دعانى

فأصبحت للإسلام ماعشت ناصرا وألقيت فيها كلكلى وجرانى
فمن مبلغ سعد العشيرة أننى شربت الذى يبق بآخر فان

تلك هى آمال جديدة تظهر فى سماء الدعوة ؛ فليهنأ الرسول بهذا الأمل لقد تفتحت قلوب الناس .. وامام هذا الوعى المطرد ، كان حنينه إلى مكة يزداد ، فهو لم ينقطع ، لقد هفت إليها النفوس نفوس المهاجرين ، ففيها ديارهم ، وبها كان مقامهم ، إنهم يتساءلون متى سنعود . . ولكن ساعة النصر قريبة ، والرجوع آت لاشك فيه وإن غدا لناظره لقريب .

دفاع وحرب

انتشرت الدعوة ، وأصبح لها حماة فى كل مكان ، ودعاة فى كل صقع ونصراء فى كل شعب اتجه الرسول عليه السلام فى دعوته إلى السلم أبداً . . يعظ الناس ، ويفقههم أمور دينهم ؛ ولكن النكران كان طبيعتهم . والإعراض من شيمتهم . . إذن لا بد من موقف إيجابى للرسول حيالهم ، فكانت الغزوات والسرايا التى بلغت أكثر من تسعة وأربعين سرية ؛ وستة وعشرين غزوة ، كانت كلها دفاعا عن العقيدة ، وحفاظا لهام من الطغاة . . لقد توالت الغزوات والرسول عليه السلام يجابه الكفر بنفسه ، ويصرع الطغيان بسيفه فكان يقف فى الميدان ويقول أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب ، ويقول بعض صحابته ، كنا إذا حمى الوطيس ، واحمرت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم . .

وفى مقامنا هذا لا نحب أن نسترسل فى الحديث عن الغزوات والتعمق فى بحثها ووصفها .. غير أنه لزاما علينا أن نأخذ من بين أحشاء التاريخ صورة واحدة للحياة القاسية التى كان يعيش فى ظلها صاحب الدعوة ورسول الهداية محمد صلوات الله وسلامه عليه .

لقد انكشف المسلمون يوم أحد ، حتى لقد استشهد عدد كبير من المسلمين ، فأصاب فيهم العدو ، وكان يوم بلاء وتمحيص ، أكرم الله فيه من أكرم ، حتى خلص العدو الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصابه بالحجارة حتى وقع لشقه فأصيبت رباعيته ، وشج فى وجهه وكلمت شفته ، وكان الذى أصابه عتبة بن أبى وقاص ، ووقع الرسول

عليه السلام فى حفرة من الحفر التى عمل فيها أبو عامر ليقع فيها المسلمون ، وهم لايعلمون ، فأخذ على بن أبى طالب بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائما ومص مالك بن سنان ـ أبو سعيد الخدرى ـ الدم عن وجه الرسول عليه السلام ثم ازدرده ، فقال عليه السلام ، من مس دمى دمه لم تصبه النار ، ثم قال عليه السلام حين غشيه القوم من رجل يشرى لنا نفسه ، فقام زياد بن السكن وجماعته معه وقاتلوا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا رجلا يقتلون دونه حتى كان آخرهم زياد . وقيل عمارة ، فقاتل ، حتى أثرت فيه الجراحة ثم فاءت فئة من المسلمين ، فأجهضوهم منه ، فقال عليه السلام أدنوه منى ، فأدنوه منه ، فوسده قدمه ، فمات وخده على قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

تلك هى صورة الألم ، تتكرر فى حياة الرسول وجماعته ، ضحى بكل وقته ، ووهب حياته للدعوة ، مدافعا عنها ، ومناضلا دونها كانت كل تلك المعارك تسير إلى هدف وغاية ، فدخول الناس فى الدين ، والرجوع إلى مكة ، وإسلام أهلها هما الهدف والغاية .. فالهجرة قد قوت أواصر المحبة والصداقة بين المسلمين ، وربطت بين القلوب ، فتآلفت ، واتحدت ، وكونت أعظم قوة ، وأقوى سياج للدعوة والإسلام .

عود إلى مكة

فى غمرة الأحداث التى كانت تتسلسل ، والرسول بالمدينة استيقظ الرسول عليه السلام يوما من نومه ، وعمد إلى أصحابه ، ودعاهم إلى مجتمع عام ، وبعد أن تكامل عقدهم .. أخبرهم بقول الله تعالى : « لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين » ، فتهللت أسارير وجوههم ، وغردت خواطر آمالهم ، وضحكت ملامح محياهم ، ورقصت بنات أفكارهم ..

إن الحلم الطويل الذى طالما راودهم سيتحقق .. إنها مكة فعن قريب سيستنشقون عبق هوائها الحبيب ، وسيطوفون بالبيت ، ويستلمون الركن ، ويسعون بين الصفا والمروة ، ومن يدرى ، لعل الله بعد ذلك يرغم أنف قريش ، ويذل أبيها وتعلو كلمة التوحيد فى ربوع مكة .

تجهز القوم يترأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخذوا يضربون فى الصحراء، يدفعهم الإيمان العميق، ويسوقهم نبل العقيدة وشرف الاستشهاد .. وما كادت شمس اليوم التالى ترسل أشعتها على الوجود وتهب نسائم الحياة حلوة عذبة، تداعب آمال قوم يسوقون بدنا تسيل بأعناقها البطاح، وتملىء صحراؤهم، بأناشيدهم الحماسية التى يشع منها روح الإيمان - حتى حفزتهم الرغبة القوية إلى المضى فى طريقهم والسير إلى غاياتهم .. إلى مكة مهوى أفئدتهم، ومهبط أحسابهم وأنسابهم ..

لقد تخلف عن الرسول قوم فى المدينة وقالوا: لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً .. لم يؤثر ذلك فى عزائم الرسول وجنده وبينما الرسول والمؤمنون يزحفون بنياقهم ورجالهم، إذ لاح لهم فى الأفق البعيد شبح يتحرك نحوهم، ويتجه إليهم، وما هى إلا لحظات حتى تبينه الرسول عليه السلام، فإذا به بشر الخزاعى، فتقدم من الرسول. وقال له يارسول الله لقد أتيت من عند قوم. كنت أتندس أخبارهم وأقف. على أسرارهم. كما أمرتنى، فلقد سرى إليهم خبر سيرك. وهبط عليهم حديث رؤياك، ولا أدرى كيف وقع عليهم الخبر، فقال الرسول عليه السلام: هيه يا بشر. وبماذا قابلوا الخبر. وماذا أعدوا للقاء. قال بشر: لقد خرجت قريش كلها. وعاهدوا أنفسهم أن لاندخل مكة أبداً .. وهذا خالد بن الوليد. قد خرج لقتالك بخيله ورجله.

فقال الرسول عليه السلام «ياويح قريش، قدأكلتهم الحرب وماذاعليهم لوخلوا بينى وبين سائر العرب، فإنهم إن أصابونى كان ذلك الذى أرادوا، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش؟ والله لا أزال أجاهد - على هذا الذى بعثنى الله به - حتى يظهرنى الله أو تنفرد عنى هذه السالفة .. وماذا يريد خالد، نحن ماخرجنا مقاتلين، ولا محاربين، بل خرجنا مسالمين موادعين، وما ذاك يوم اشتباك القنا؟ ولا تقابل الأقران، من يخرج بنا إلى طريق غير طريقهم؟ ويدفع إلى مكان بعيد عن عيونهم وطلائعهم»

جو غريب يعيش فى أحضانه صاحب الدعوة ورسول الهداية، حتى فى الساعات التى توجه فيها إلى دعم أسس السلم، ومقومات السلام، غير أن القوم غلف قلوبهم .. إنه يريد مكة مهادنا مسالماً.

لقد جاء إليه عليه السلام بديل بن ورقاء الخزاعي ـ وهي إحدى القبائل الموالية لرسول الله صلى الله عليه وسلم صدقا وولاء فتجمع القوم حوله ، وأخذوا يمطرونه وابلا من الأسئلة من أين ؟ وإلى أين ؟ ما حال قريش ؟ وكيف استعدادها ؟ وما موقف خالد ؟ . .

جو مشحون بعلامات الاستفهام ، فقال بديل ، لست مجيبا لسؤال إلا عند محمد . ثم أخذ طريقه إلى خيمة الرسول عليه السلام فقال بديل يارسول الله ، لقد جئت سرا ، وقريش لانعلم من أمرى شيئا ، فهى قد أعدت للأمر عدته ، وخرجوا بكل عتادهم وشدوا أوتارهم ، وراشوا سهامهم ، وأقسموا جهد أيمانهم ألا تدخل مكة . وأشهدوا على أنفسهم اللات والعزى ، وهبلهم الأعلى ، فقال عليه السلام : يابديل ، ما جئنا نتحرف لقتال أو نقصد إلى حرب ؛ ولكننا جئنا للبيت زائرين . ولحرمانه معظمين ، وها أنت ذا ترى السيوف فى أغمادها والبدن مشعرة . والقوم معتمرين إن شئت يابديل ، فاحمل إليهم نبأنا ، وأفصح لهم عن وجوه مقاصدنا لعل الله يحقن بك الدماء ، ويذهب ضغائن الصدور . .

رجع بديل إلى مكة يحمل بين جوانحه أمن قوم ، وسلامة أمة اختارها الله لدعم المحبة والسلام فى الأرض ؛ وما أن وصل بديل حتى قالوا له : هات ماعندك من حديث محمد ؛ أرأيت أن محمداً يريد أن يغزونا فى دارنا ؛ وينقص من عزتنا ؛ ألم يكفه ما كان من قتل كبرائنا ؛ وذوى الرأى فينا ؛ إن ذكريات عتبة وشيبة وحنظلة وابن هشام ؛ لاتزال أمامنا ؛ وإن دموع الباكيات على ابن تود لاتزال تجرى سخينة حارة ؛ وها هو ذا يجىء اليوم؛ ليعيدها جذعة . ويقيمها حربا ضروسا . . فما عندك ؟ وما ترى ؟ . . قال بديل . انكم تبعدون فى الوهم . وتسرفون فى الظن . لقد جئت محمداً . وتحدث إلى بما عنده . إنه لايريد بكم حربا . ولا يبغى عليكم عدوانا . وانما جاء معتمرا . وللبيت طائفا ومعظما . . فظن القوم ببديل السوء وظنوا به الظنون . وقالوا : هذا رأى فاسد ؛ ألم يعم علينا الحقيقة ؟ ويذهب بنا الى حيث تنتهى أقدام محمد ؟ : فقال بديل . . غدا تعلمون .

فاضطرب أمر القوم . وأرسلت قريش الحليس بن علقمة ، يتعرف أخبار القوم ؛ ولم يكد ينفصل عن مكة حتى رأى الابل تسد عرض الوادى ؛ وقد أكلت أوبارها من

طول ماحبست . فرجع إلى قومه وقال : أيها القوم . بئس والله ماطاش سهمكم . . أتمنعون أناساً أتوا إلى الحج معتمرين . ولهم شرف يعلو النجوم . إن هذا لباطل . وبغى . وما تعاهدنا على باطل أو بغى . .

فسارت فيهم موجة من الذعر تلف جماعتهم . وسكرة من الخوف تحيط بهم . فرآهم نعيم بن مسعود يموج بعضهم فى بعض . وقد أصابهم سهم الحيرة . وطاشت بأحلامهم نبال الغدر الذى كانوا يبيتون فقال : أى قوم . إنى لمن أشرف القوم عزاً ونسباً . ولى فى ثقيف رياسة . وفى الطائف ملك . . .

دعونى أذهب لأستطلع الأنباء عنكم . وسأرى ماترون وأرجو ماترجون . . ففوضوا إليه الأمر . وتوسموا فيه الهداية والخبر اليقين . وجاء ابن مسعود إلى الرسول . فوجده والقوم يحيطون به . فقال : يامحمد . ماهذا الذى جمعت إليه جمعك وحشدت إليه جندك . الا فلتعلم أن قريشاً قد علم الناس صدقها عند اللقاء وصبرها على اللأواء . ولقد ترامى إليهم أنك جئت غازياً ديارهم . ألا فلتعلم أنهم عاهدوا الآلهة أن لاتدخلها أبداً . . فقال له الرسول عليه السلام . . لقد تحدثت إلى بديل . وتحدثت إلى الحليس . إنى ماجئت أبغى حرباً . أو أريد قتالا . وإنما جئنا معتمرين . وللبيت الحرام طائفين ومعظمين . فإن شاؤوا خلوا لنا الطريق . وإلا فإن لنا معهم شأنا نترقب فيهم أمر الله . .

رجع ابن مسعود يحمل فى جعبته جواباً يصيب قريشاً فى مكمن الحقد من نفوسهم . فقال لهم ابن مسعود : ياقوم . والله لقد وفدت على الملوك . ووفدت على قيصر فى ملكه . وعلى كسرى فى عزه وعلى النجاشى فى عرشه . فوالله مارأيت رجلا يعظمه قومه كما يعظم محمداً قومه . وقد ألقوا إليه بمقاليدهم . وأمكنوه من قيادهم . وإنهم لايرجعون له قولا . ولا يردون عليه رأيا . فروا رأيكم . واقتدحوا زناد عقولكم . والأمر نهايته بين أيديكم . .

فعظم الأمر عليهم . وقد أدركتهم الحمية . . إن قريشاً جسر لايعبر فدونه المهج والأرواح . تملكت الحدة قريشاً . ودوختهم أقاويل سفرائهم . فأنهكت عزائمهم . . إن محمداً سيدخل عليهم فى ديارهم وهو الذى خرج منها مكرها . .

لقد تبين لهم من رسلهم أن محمداً صادق العزم . لن تهدأ ثائرته إلا إذا دخل مكة . وطاف . ولن يستطيع أحد من القوم أن يصرفه عن رأيه . أو يحوله عن فكرته . بل هى الغاية . والعزيمة ماضية والهمة ثائرة . .

رأت قريش أن ابن مكرز رجل شجاع فيهم ذو همة عالية . وبأس شديد . فوكلت إليه أمرها . وألقت على أكتافه أهدافها . . إنهم يريدون منه الطواف بمعسكر محمد وأصحابه . وكسر سهامهم . وإنزال الرعب فى قلوبهم . . . وما كاد الظلام يضرب الرواق حتى أخذ ابن مكرز يطوف بعسكر المسلمين . . . وماهى إلا لحظة حتى أصابه الفزع وركبه الذعر . . فقال لمن معه . من هذا الذى يحرس رجال محمد .

إننى أظنه محمد بن مسلمة . فله قامة بين الرجال مديدة . وشهامة بين أقرانه فائقة . له صولات وجولات . ولأعدائه أنات وآهات إنه ليث غابة . وأسد فـــلاة . ومسعر حروب . .

فسرت الرعدة فى قلوبهم . واختلط الخوف بدمائهم . وامتزج الجبن بأرواحهم . . فأحس بهم ابن مسلمة . فنادى فى رجاله والله ماهى غير قريش . قد أتت بخيلها ورجلها . . قفوا يارفاق . واشهروا سيوفكم . وارفعوا حرابكم . وخوضوا غمار حربكم . . فوقع ابن مكرز وجماعته فى أسر المسلمين . . ولكن الرسول عليه السلام . ماجاء يبغى حرباً أو يقصد غزوا فغايته نبل المقصد . وهدفه حقن الدماء .

فأطلق الرسول سراحهم . وفك اصفادهم . لعلهم يطمئنون إلى وجهتنا . ويتبينون غايتنا . ولقد جئنا للبيت مطوفين ومعظمين . ولعلهم يفهمون ويعقلون . .

أشار صلوات الله وسلامه عليه للقوم بالجد . والتهيؤ . .

إننا سائرون . ولغاياتنا ذاهبون . حتى نبغت قريشاً فى بلادها فقال الرسول عليه السلام . . اللهم خذ على أبصارهم . فلا يرونى إلا بغتة . . وبينما القوم فى مسيرهم إلى مكة . إذ كتب حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش يخبرهم بأسرار محمد . وبالذى أجمع ثم أعطى

الخطاب لامرأة . وجعل لها جعلا . على أن تبلغه قريشاً . فوضعت المرأة الخطاب فى رأسها وبين جدائل شعرها المفتول . . فنزل الوحى من السماء بما صنع حاطب . فكلف الرسول عليه السلام على بن أبى طالب . والزبير بن العوام رضى الله عنهما . فقال عليه السلام أدركا المرأة . وتبينا أمرها وأتيا بالكتاب الذى أرسله حاطب مع المرأة إلى قريش فأدركاها وطلب منها الخطاب . وتبينا فى رحلها فلم يجداه .

فقال على : والله ماكذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فطلبا منها فى صراحة قاسية ولما رأت الجد منهم ، أخرجت الكتاب الذى أرسله حاطب وأعطته لهما . فنادى الرسول عليه السلام حاطبا وقال له : يا حاطب . ما حملك على هذا ؟ فقال حاطب : يا رسول الله أما والله إنى لمؤمن بالله ورسوله ماغيرت ولا بدلت . ولكنى كنت امرءاً ليس لى فى القوم من أصل ولا عشيرة . وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل . فصانعتهم عليه

فقال عمر بن الخطاب : يارسول الله دعنى فلأضرب عنقه . فإن الرجل قد نافق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما يدريك يا عمر . لعل الله قد اطلع إلى أصحاب بدر . فقال اعملوا ماشئتم قد غفرت لكم .

صراع بين الحق والباطل يدور على رمال الصحراء . قوم يريدون العداوة وآخرون يريدون المحبة والإخاء . . طرفان يتنازعان على بساط الحياة . يتعاركان ويصطرعان . ما ظلت عقائدهم خالية من معنى الإيمان . وهل جزاء الإحسان الذى نادى به محمد عليه السلام إلا الشر والخسران . . الخسران الذى بيتته قريش لمحمد وأصحابه . .

لقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان يتلمس الأخبار ويتحسس الأقاويل . ويبين لقريش نبل مقصدهم وشرف غايتهم فقالوا له : أما أن يدخل محمد مكة ويطوف بالبيت . فدون ذلك عزة تملأ نفوسنا . ونخوة عربية أصيلة تجرى فى عروقنا وإنك إذا أردت أن تطوف وحدك فدونك . وما تريد قصده واحتبسه القوم عندهم . .

تطايرت الأنباء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تحمل نبأ مقتل عثمان فأصبح

السلم فى خطر ، ولم يعد هناك مفر من قتالهم . فهم القوم الذين هادناهم وأرخينا لهم العنان . ولكنهم لم ينتهوا فالقتال هو الحل الفيصل بيننا و بينهم : والله مؤيدنا وناصرنا

خافت قريش عاقبة أمرها .. لقد انتشرت الفتنة بين الناس جميعاً فأرسلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سهيل بن عمرو فقال : يارسول الله . لقد تبينت قريش عاقبة أمرها . وخطر ما وقع من أشرارها وإن عثمان لم يقتل .. ولكنه منع من المجيء إليكم لحلم طائش . ورأى غير سديد .. ولقد جئت اليك موادعا . مهادنا ومصالحا .

إنها قريش نزلت رغم أنفها عن كبريائها وسلطانها . فأخذت تهادن وتمد يد الصفح والغفران من جديد . وتباحث الرسول مع سهيل وظلا يتناثان الحديث . ويتناقشان الكلام ثم أعلنا قرارهما وما انتهيا اليه :

أولا : أن يرجع المسلمون بغير عمرة هذا العام . فإذا كان العام المقبل جاء النبي وأصحابه الى مكة وقد خلتها قريش فيقيمون فيها ثلاثا يعتمرون وليس معهم سلاح غير السيوف فى القرب .

ثانيا : أن تضع الحرب أوزارها بين الفريقين عشر سنين .

ثالثا : من جاء الى المسلمين من قريش برد عليهم . ومن جاء قريشا من المسلمين لا يلزمون رده . ومن أراد أن يدخل فى عهد قريش دخل فيه . ومن أراد أن يدخل فى عهد محمد دخل فيه .

الزحف المقدس

لقد تم الصلح بين الرسول وسهيل على هذا النحو الذى ذكرنا . الا أن عمر رضى الله عنه .. قد غلا مرجل الغيظ فى نفسه وانتفخت أوداجه . انه يتساءل كيف يقبل الرسول الرجوع إلى المدينة .. أين مكة ؟ وأين ديارنا ؟ وأين أموالنا وأهلونا ؟ خواطر تداعب عمر رضى الله عنه .. لقد بشروا بالرجوع الى مكة . . ولكن هيهات . . انهم سيرجعون الى المدينة بعد أن هيأوا أنفسهم للرحيل الى مكة . .

ذهب عمر الى أبى بكر رضى الله عنه وقال له : يا أبا بكر ، نشدتك الله ، أليس برسول الله ؟ قال : بلى . قال أو لسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا .. فقال أبو بكر : ياعمر الزم غرزه . فإنى أشهد انه رسول الله قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله . وأنا ماشككت ولا اضطربت عقيدتى إلا الساعة فقال أبو بكر : اذهب الى الرسول واكشف له عن خبايا نفسك ومكنون سرك فقال عمر : يارسول الله . كنت أخبرتنا أننا سنطوف بالبيت : قال نعم . أفأخبرتك أننا نأتيه هذا العام قال لا : قال : فإنك آتيه ومطوف به . فسكت عمر . وسكن غضبه . وذهب ماكان يراوده من الأفكار .

كتب الرسول عليه السلام عهد الصلح بينه وبين سهيل . ورجع سهيل الى مكة ليعلن فى الناس ما تصالحا عليه . وقال : من أراد ان يدخل فى عهد قريش دخل فيه . ومن أراد ان يدخل فى عهد محمد دخل فيه .. فدخلت بكر فى عهد قريش . ودخلت خزاعة فى عهد محمد صلى الله عليه وسلم . .

رجع المسلمون الى المدينة حتى يهل عليهم مطلع العام الجديد ليجددوا المسير . ويشدوا الرحيل .. ظل الرسول حافظا للعهد قائما على تنفيذ نصوصه . .

لقد جاء أبو بصير الى المدينة زائغ البصر شارد النظرات على رجليه ملامح أصفاد . فقال : اسمعوا يا قوم . لقد هاجر محمد من مكة . ماكان آلم على نفسى من دعوته ولم أزل

على هذا حتى سمعت رجلا يتلو القرآن ليلا فارتاح اليه طبعى . وما كاد القوم يتبينون أمرى حتى صفدونى . وأنزلوا بى الأسى والهوان . فاستجرت بكم وفررت اليكم طالبا حماكم . راجيا أمنكم . .

طلع على المسلمين اثنان من قريش يطلبان رد أبى بصير تنفيذاً للعهود المأخوذة بين الطرفين . فقال لهما الرسول عليه السلام . ما نقضت العهد ولا حنثت فى اليمين ودونكما الرجل فخذاه . ولعل الله يجعل من أمره يسراً وفى دينه فرجا .

رجع أبو بصير كاسف البال . ليس من معين ولا نصير .

مرت الأيام سراعا والمسلمون يتقلبون على جمر من الغيظ . إنهم يريدون مكة أرضهم وبلادهم فكانت الأحداث تمر . ان قريشا نقضت العهد وفجرت فى اليمين . فلقد أعانوا بكراً على خزاعة فاعتدت عليها . .

وكان هذا التعدى الذى وقع من بكر على خزاعة بمساعدة قريش داعياً من الدواعى العميقة فى جذور الأحداث لفتح مكة . وكأنما كان القدر يهيء تلك الأحداث لتكون بمثابة مقدمات يصلون عن طريقها إلى أهدافهم وغاياتهم . . وسبب هذا الاعتداء أن بنى بكر بن عبد مناة . عدت على خزاعة وهم على ماء لهم بأسفل مكة . وذلك لأن رجلا من بنى الحضرمى خرج تاجراً فلما توسط أرض خزاعة . عدوا عليه فقتلوه وسلبوا ماله . فكان لهذا الحادث رجع صدى فى نفس بنى بكر فعدت بنو بكر هى الأخرى بدورها على رجل من خزاعة فقتلوه فأقام بينهم الإسلام الحد الفاصل الذى يكفل لهم حفظ دمائهم . حتى كان صلح الحديبية بين الرسول عليه السلام وقريش . وكانت خزاعة قد دخلت فى عهد محمد . فاعتدت عليها بكر . .

فكان لهذا الحادث أثر بالغ فى نفس الرسول . وكان بمثابة نقض للصلح المعقود بين الطرفين . فخرج عمرو بن سالم الخزاعى فى أربعين راكباً من خزاعة . وذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستنصره . ويستنجد به . فلما علم الرسول بذلك . قال : لا نصرت إن لم أنصر بنى كعب مما أنصر منه نفسى وقال . إن هذا السحاب ليستهل بنصر بنى كعب . فوقف خزاعة والرسول فى المسجد . وقال :

يارب إنى ناشـد محمداً ... حلف أبينا وأبيه الأتـلدا
قـد كنتم ولداً وكنا والداً ... ثمت أسلمنا فلم ننزع يداً
فانصر هداك الله نصراً أعتدا ... وادع عباد الله يأتوا مـدداً
فيهم رسول الله قد تجـردا ... إن سيم خسفاً وجهه تربداً
فى فيلق كالبحر يجرى مزبداً ... إن قريشاً أخلفوك الموعـداً
ونقضوا ميثاقك المؤكداً ... وجعلوا لى فى كداء رصـداً
وزعموا أن لست أدعو أحداً ... وهم أذل وأقل عـدداً
قد بيتونا بالوتير هجداً ... وقتلونا ركعاً وسجداً

فانصر هداك الله نصراً أيداً

فقال الرسول عليه السلام . نصرت ياعمرو بن سالم . ثم توجه إلى الله قائلا : اللهم خذ العيون . والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها .

لقد غدرت قريش وفجرت . ونقضت العهد ونكثت . فوفدت القبائل من مزينة . وغفار . وأشجع . وسليم . وجهينة فنهم من وافاه بالمدينة . ومنهم من لحقه بالطريق . حتى تكامل عقد المسلمين فبلغ رجالهم عشرة آلاف رجل . واستخلف الرسول عليه السلام على المدينة عبدالله بن أم مكتوم .. وكان خروج المسلمين من المدينة يوم الأربعاء لعشر ليال خلون من رمضان . بعد العصر . . التأم جيش المسلمين . فى عزم وصدق وبلاء .. ولقد حانت ساعة الرحيل .. ودنت لحظة الجهاد .. إن الرسول لم يبغ حربا . ولكنها الأحداث الجسام قد يفاجأ بها الرسول وهو فى الطريق إلى مكة إن القوم اهل غدر وخداع . فأعد الرسول عدته . وجهز جيشه وسار على بركة الله .

سار القوم ترفرف فوقهم العقاب ـ وهى راية رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهم أكتم مايكون على السر . وأحفظ مايكون لأخبارهم حتى لاتعلم قريش أنباءهم . فيستطيع المسلمون أن يباغتوهم فى ديارهم .

تحرك جيش عرمرم من المسلمين يتجهون ناحية البلد الأمين فيطلع عليهم فى الطريق رجل مهيب الطلعة . فارع القامة . مديد الجسم . عليه سمات الرجولة . وحرارة الشباب

تبدو من مشيته ، فإذا هو العباس عم الرسول عليه السلام . فقال يارسول الله . لقد علمت أنى أسلمت من عهد . ولـكننى مااستطعت أن أجهر بالإيمان وما استطعت أن أصبر بعد ذلك على الـكتمان . وقد جئت إليك مع زوجى وأولادى . فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم . بأن يترك أولاده فى المـــدينة . ويلحق بالجيش الزاحف على مكة .

رأى العباس جيش رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : واصباح قريش . والله لئن دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم . مكة عنوة قبل أن يأتوه . فيستأمنون . إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر . . ويقول العباس مسترسلا فى حديثه . فجلست على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جئت الأراك . فقلت لعلى أجد بعض الحطابة . أوصاحب لبن . أوذا حاجة يأتى مكة فيخبرهم بمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم . فيخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة . ويقول العباس : فوالله إنى لأسير عليها وألتمس ماخرجت له ، إذ سمعت كلام أبى سفيان ، وبديل بن ورقاء ، وهما يتراجعان وأبو سفيان يقول : ما رأيت كالليلة نيرانا فقط ، ولا عسكرا ، ويقول بديل هذه والله خزاعة حمشتها الحرب ، ويقول أبو سفيان . خزاعة أذل الناس . وأقل من أن تـكون هذه نيرانها وعسكرها .

قال العباس : فعرفت صوته ، فقلت : عجبا ! أأنت أبو سفيان ؟ ماجاء بك فى هذا الظلام ياأباحنظلة ؟ قال هم العشيرة وافداح القبيلة ، ورزء الزمان ، لقدخرجت اتحسس خبر ابن اخيك . وأتطلع طلع المسلمين . وقد حرزت قريش الحرب . وتوقعت الشر من يوم أن انتقض العهد .

قال العباس : ويحك يا أبا سفيان ! هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم . . واصباح قريش والله ، قال فما الحيلة فداك أبى وأمى ؟ قلت والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك . وشديد على أن أرى شيخ قريش مجندلا . اركب معى هذه البغلة . حتى آتى بك رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأستأمنه لك . قال العباس : فركب خلفى . ورجع صاحباه . فجئت به فـكلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا : من هذا ؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله وأنا

عليها قالوا : عم رسول الله على بغلته . حتى مررت بنار عمر بن الخطاب رضى الله عنه . فقال : من هذا . وقام إلى . فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال : أبو سفيان عدو الله ! الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد.

انطلق عمر يعدو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال يارسول الله : هذا أبو سفيان . قد أمكن الله منه من غير عقد ولا عهد فدعنى أضرب عنقه . ليخبو ضرام غيظى .

قال العباس : يا رسول الله إنى قد أجرته . ثم جلست إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأخذت برأسه . فقلت : والله لايناجيه الليلة دونى رجل .. فقلت : يا أباسفيان .. إن كان على قلبك غشاوة فمزقها . أو كان على عينيك غمامة فارفعها . وأسلم إبقاء على حياتك وحرصا على دنياك وآخرتك . فكان لهذا الكلام أثره العميق فى نفس أبى سفيان . فحرك الإيمان فى قلبه . فاهتز بين جوانحه إنه نور جديد يغزو قلبه . وشعاع من الأمل الباسم ينير فؤاده . لقد تجاوبت نفس أبى سفيان مع الكلمات القليلة التى نطق بها العباس . فكان التعبير الصادق والرد السليم الذى حفظ دمه وعصمه من الإثم « أشهد أن لا إله إلا الله واشهد أن محمداً رسول الله » .

فلما أصبح الصباح ذهب العباس بأبى سفيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له الرسول : ويحك يا أبا سفيان . ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟ قال : بأبى أنت وأمى . ما أحلمك وأكرمك وأوصلك . ولقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره . لقد أغنى عنى شيئا بعد . قال : ويحك يا أبا سفيان . ألم تعلم أنى رسول الله ؟ قال : بأبى أنت وأمى . ما أحلمك وأكرمك يا رسول الله . أما هذه والله . فإن فى النفس منها حتى الآن شيئا . فقال له العباس : أسلم واشهد أن لاإله إلا الله . وأن محمداً رسول الله . قبل أن تضرب عنقك . فشهد شهادة الحق أمام الرسول وأسلم فقال العباس : يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر . والإسلام حتى الساعة لم يزل غريبا فى قلبه . فهو يميل إلى الخيلاء .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم . من دخل دار أبى سفيان فهو آمن . ومن أغلق عليه بابه فهو آمن . ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن .

فلما ذهب لينصرف . قال الرسول عليه السلام . يا عباس : احبسه بمضيق الوادى عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها . قال العباس : ففعلت ومرت القبائل تعلو كل قبيلة رايتها . فكلما مرت قبيلة . قال : يا عباس . من هذه ؟ فأقول سليم ، فيقول : مالى ولسليم ، ثم تمر القبيلة فيقول : يا عباس من هؤلاء ؟ فأقول مزينة ، فيقول : مالى ولمزينة ؟ حتى نفدت القبائل . ما تمر به قبيلة إلا يسألنى عنها . فإذا أخبرته بهم قال مالى ولبنى فلان . حتى مر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتيبته الخضراء . فيها المهاجرون والأنصار . رضى الله عنهم . فقال أبو سفيان : من هؤلاء يا عباس ؟ سبحان الله قلت : . هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المهاجرين والأنصار . قال ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة . والله يا أبا الفضل . لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما .

قلت : يا أبا سفيان . إنها النبوة . قال : فنعم إذن فذهب أبو سفيان إلى مكة صائحا فى عرصاتها . مناديا فى طرقاتها يا معشر قريش . قد جاءكم محمد بما لا قبل لكم به . فمن دخل دار ابى سفيان فهوآمن . ومن دخل داره فهوآمن . ومن دخل المسجد فهو آمن .. فقامت إليه زوجته هند . وقالت : اقتلوا الحميت الدسم الأحمس فقال أبو سفيان : ياقوم . لاتغرنكم هذه عنأنفسكم . وقد نصحتكم . لتحقنوادماءكم . وتحفظوا أرواحكم . فلما وصل الرسول عليه السلام « ذى طوى » ، نظر إليهم فوجدهم أقوى ما يكون عزيمة ، واشد ما يكون بأسا .. همم عالية ، وروح سامية تدفعهم رغبة شريفة ، وتحفزهم طاعة صادقة ، رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

وهنا فرق الرسول جيشه ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن عبادة ، أن يدخل من كداء ، والزبير من كدى ، وخالد بن الوليد من الليط (أسفل مكة) وكان خالد على المجنبه اليمنى ، وفيها أسلم وسليم ، وغفار ، ومزينة ، وجهينة ، وقبائل من قبائل العرب ، واقبل أبو عبيدة بن الجراح بالصف من المسلمين ينصب لمكة بين يدى رسول

الله صلى الله عليه وسلم ، ودخل الرسول من أذاخر حتى نزل بأعلى مكة ، وضربت له هناك قبته ..

خرجت جماعة من قريش ، فيهم صفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبى جهل وسهيل ابن عمرو ، وقيس بن خالد ..

كانوا قد جمعوا أناسا بالخندمة ، ليقاتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له زوجته ، لماذا تعد ما أرى ؟ قال لمحمد وأصحابه ، قالت : والله ما أراه يقوم لمحمد وأصحابه شيء ، قال : والله إنى لأرجو أن أخدمك بعضهم . ثم شهد الخندمة مع صفوان وسهيل وعكرمة ..

نصر مبين

إن ساعة النصر قريبة .. لقد وعد الله المسلمين النصر ، ووعدهم دخول مكة آمنين مطوفين .. فان يخذلهم أبداً مهما تجمعت قوى الغدر والخيانة .. إن الإيمان العميق ، الذى جرى فى عروق المسلمين هو وحده الدافع للنصر ، فهم يدافعون عن حق ، وقريش تدافع عن باطل .. فرق بين غايتين ، متناقضتين ، غاية شريفة ، وأخرى فاسدة .

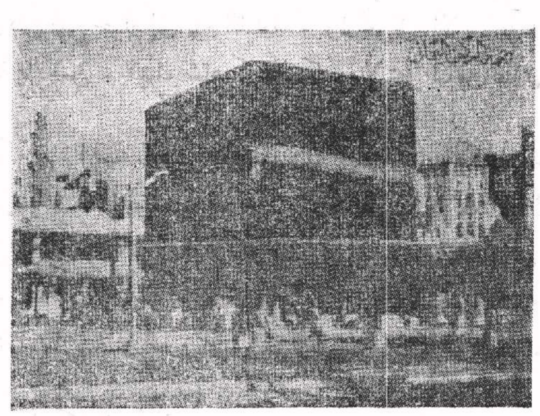
تقابل جيش الرسول عليه السلام ، مع تلك الفئة الضالة من قريش ، وترامت النبال ، وقعقعت السيوف ، وتراشت السهام فأصيب من جهينة سلمة بن الميلاء من خيل خالد بن الوليد وأصيب من المشركين اثنا عشر رجلا ، ثم انهزم المشركون فرجع حماس منهزما ، وقال لامرأته : أغلقى على بابى ، فقالت له أين ما كنت تقول . فأجابها :

إنك لو شهدت يوم الخندمة إذ فر صفوان وفر عكرمة
لهم لهيث خلفنا وهمهمة لم تنطق فى اللوم أدنى كلمة

فالرسول عليه السلام لم يأمر حين دخوله مكة بقتال ، حتى يحفظ دماء أصحابه ، ودماء قريش من أن تهدر ، غير أنه قد أمر بقتل بعضهم (سماهم الرسول) فقتل بعضهم . وفر البعض . ووجد منهم مقتولا تحت أستار الكعبة ، عبد الله بن سعد أخو بنى عامر بن لؤى وأمر الرسول بقتله لأنه . كان قد أسلم . وكان يكتب الوحى . فارتد مشركا راجعا إلى قريش ..

دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عنوة . فهرع الناس إلى المسجد والدور .. ودخل رسول الله حانيا ظهره شكرا لله . غاضا طرفه لابسا عمامته السوداء . وهو يتلو قوله تعالى « إنا فتحنا لك فتحا مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما . وينصرك الله نصراً عزيزا . هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض . وكان الله عليما حكيما . ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها . ويكفر

عنهم سيآتهم . وكان ذلك عند الله فوزا عظيما ويعذب الله المنافقين والمنـــافقات . والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء . عليهم دائرة السوء . وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا . ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزا حكيما ، (صدق الله العظيم)



الكعبة المشرفة

فلما اطمأن به المقام . ذهب إلى البيت . وطاف به سبعـا على راحلته يستلم الركن . فلما قضى طوافه . دعا عثمان بن طلحة . فأخذ منه مفتاح الكعبة . ففتحها فوجـد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها . ثم وقف على باب الكعبة . وقد استدار له الناس فى المسجد ثم جلس فقام إليه على بن أبى طالب . ومفتاح الكعبة فى يده فقال يارسول الله . اجعل لنا الحجابة . والسقاية . صلى الله عليك فقال عليه السلام . أين عثمان ابن طلحة فدعى له . فقال : هاك مفتاحك ياعثمان . اليوم يوم بر ووفاء . وقام الرسول إلى الأصنام .. وكان عددها كما يقول بعض المؤرخين ثلاثمائة وستين صنما .. فجعل كلما مر بصنم يشير إليه بقضيب فى يده ويقول . جاء الحق وزهق الباطل ـ إن الباطل كان زهوقا . فيقع الصنم لوجهه . وكان أعظمها هبل . وهو وجاه الكعبة . ثم جاء إلى المقام . وهو لاصق بالكعبة . فصلى خلفه ركعتين . ولما حان وقت الظهر . أذن بلال فوق الكعبة .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم. لا تغزى قريش بعد هذا اليوم إلى يوم القيامة . ووقف بالحزورة . وقال : والله إنك لخير أرض الله . وأحب أرض الله إلى ـ يعنى مكة ـ ولولا أنى أخرجت منك ماخرجت أبداً . فلما كان الغد ـ يوم الفتح ـ خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الظهر فقال : « إن الله قد حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهى حرام إلى يوم القيامة . ولم تحل لى إلا ساعة من نهار . ثم رجعت كحرمتها بالأمس . فليبلغ شاهدكم غائبكم . ولا يحل لنا من غنائمها شيء » .

وكان فتح مكة يوم الجمعة . لعشر بقين من شهر رمضان . وهكذا فتحت مكة . ورجع الرسول إليها منتصرا . يغمره الفرح . ويهزه الطرب .. لقد عاد الرسول إلى القوم الذين أخرجوه وصحبه من ديارهم . وافتنوا فى إيذائهم .. قد عاد إليهم ظافراً بهم . قادراً عليهم . . ماذا سيقول لهم . سيقول لهم ما كان يردده دائماً وينشده . عفو . وتسامح . فقد كانتا هما الصفتان البارزتان فى حوار الرسول دائما مع السفراء والوفود .

لقد فتح الرسول مكة التى أرغمته على الخروج منها . فهو لم يقابل السيئة بمثلها . لقد وقف فى المسجد . وجمع حوله قريشاً . وقال : يامعشر قريش . ماتظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا . أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

تلك هى الشجاعة بأسمى معانيها . تتمثل فى محمد صاحب الهجرة . صلوات الله وسلامه عليه .

إنها رحلة شاقة فى سجل الزمن . وكفاح مرير فى حياة الرسول العظيم فلقد خرج من مكة . يحمل دعوته معه إلا بقايا منها فى قلوب المستضعفين المغلوبين على أمرهم . . ثم يكافح من اجل الرجوع إليها . . ولقد رجع يحمل بين جنبيه إيمانا لايبارى . وأمة لاتضارع .

لقد سطع نور الإسلام . وانتشر الضوء خفاقا فى الأفق ينشر على البطاح سنا الدين الحنيف . الذى يحفظ لهم كرامتهم وحريتهم فى الحياة .

فالهجرة من أعظم حوادث التاريخ . فقد كانت فرقانا . فرق الله بها بين الحق والباطل . وحدا فاصلا بين الإيمان والكفر . وكانت حجر الأساس فى صرح الحضارة الإسلامية الكبرى . أعز الله بها الإسلام . وأعلى شأنه . إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها والهجرة فى أصل معناها . اسم للخروج من أرض إلى أخرى من الهجر ـ بمعنى الترك . ومنه قوله عليه السلام : المهاجر من هجر ما نهى الله عنه . ثم شاع استعمالها على هذا الحادث التاريخى العظيم الذى غير وجه التاريخ . وحول اتجاه العالم إلى سعادة وهناء فالهجرة كلمة خالدة تحمل معنى ساميا يوقظ فى العالم معنى الإحساس بأن المسلم الذى غذى بلبان الإسلام . وخالطت نفسه بشاشة الإيمان . يحيى إذا عاش عظيما . ويموت إذا مات كريما .

فلقد كانت الهجرة تحولا وانتقالا من جوار قوم تألبوا على دعوة الحق . وأجلبوا عليها بخيلهم ورجلهم . وقعدوا لها كل مرصد يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم . ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

لقد جاء الاسلام يحمل بين كلتا يديه دواء ناجعا لأمة . أصابها الوهن من كثرة ما حل بها من الآلام .

عظة وعبرة

لقد ضرب الرسول بهجرته وارتحاله عن مواطن الشغب والفوضى أحسن مثل يجب أن يحتذيه المعنيون بإصلاح الجماعات فى مكافحة الشرور والجهالات . فلقد كانت فى سبيل المبدأ والعقيدة . وتمكينا لأسباب العزة والكرامة - وتقوية لروابط الألفة والمحبة .

ويجب أن يعلم كل مؤمن . أن الغلبة للحق . والعاقبة للصابرين وأن الايمان عقيدة مستقرة . وعزيمة ماضية . وشمم وإباء . وعزم ومضاء . .

فالرسول عليه السلام رأى أن مكة ليست بيئة صالحة تساعد على معاهد الفضيلة . ونشر تعاليم الهداية . وأن مشركيها قلوبهم قاسية كصخورها أو اشد قسوة منها . ومن أجل هذا كان عليه السلام منذ زمن ما قبل الهجرة . يجد فى روعه . أو فيما يوحيه الله إليه . أن الأمر سينتهى به إلى ترك مكة فتركها . وذهب إلى المدينة ليجد فيها المجال الفسيح للدعوة فى أحضان المؤمنين من الأوس والخزرج . الذين بايعوه بيعة العقبة . على الإيواء . والنصر .

فرضية الهجرة إلى المدينة

بعد هجرته عليه السلام

أصبحت الهجرة إلى الرسول عليه السلام وهو فى المدينة فريضة على كل من يستطيعها لأسباب . .

السبب الأول : نجاة المؤمن بدينه والتخلص من مشركى قريش .

السبب الثانى : مناصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة وتأييد دعوته . والكفاح معه وتكثير سواد المسلمين .

السبب الثالث : الانتفاع بهديه عليه السلام فى الوقوف على شرائع الله التى كانت ينبوعا صافيا من وحى لا ينقطع .

السبب الرابع : ما ورد فى القرآن والسنة من الوعيد الشديد على تركها والتهاون فى أمرها . فمن القرآن مثلا قوله تعالى : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم . قالوا فيم كنتم . قالوا كنا مستضعفين فى الأرض . قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها . فأولئك مأواهم جهنم . وساءت مصيرا .

ومن السنة قوله عليه السلام : « برئت الذمة ممن أقام مع المشركين فى ديارهم » وأفرد ابن القيم فصلا فى زاد المعاد . بين فيه من السنة حكم الهجرة قال فيه : ومنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من إقامة المسلم بين المشركين . إذا قدر على الهجرة بينهم . وقال : أنا برىء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين . قيل يارسول الله . ولم . قال «لا تراءى ناراهما » وقال صلى الله عليه وسلم : من جامع المشرك وسكن معه فهو مثله .

فهذا كله يثبت وجوب الهجرة على كل قادر من المؤمنين بسبب هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة .

حكم الهجرة بعد فتح مكة

لقد قويت شوكة المسلمين . واستطاعوا الرجوع إلى مكة . فاتحين منتصرين ـ فاجتمع الناس هناك . ليبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فجلس عليه السلام على الصفا . وقام عمر بن الخطاب بأسفل من مجلسه . فبايع الرجال على الإسلام . وأخذ عليهم العهد بالسمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا ـ ثم بايع النساء على أن لا يشركن بالله شيئا . ولا يسرقن . ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن . ولا يأتين ببهتان . يفترينه بين أيديهن وأرجلهن . ولا يعصينك فى معروف . فبايعهن . واستغفر لهن الله . إن الله غفور رحيم .

تجلت فى تلك المبايعة روعة الإسلام وقوته . وضمنت للمرأة العربية حريتها وقوة نفسها . ولقد ظهرت فيها بعض ـ طرف ـ ابتسم لها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وضحك عمر واستغرق فى الضحك . فإن هندا بنت عتبة زوجة أبى سفيان . كانت فى النساء اللاتى بايعن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكنها كانت متنكرة تخشى أن

يراها الرسول عليه السلام . وهى التى شقت بطن حمزة الشهيد يوم أحد . وأخرجت أحشاءه . ومضغتها انتقاما منه . وتشفيا لقتل المشركين الذين هلكوا يوم بدر . وكان فيهم ولدها حنظلة بن أبى سفيان خافت أن يأخذها النبى بجريرتها . غير أنها مع استخفائها وتنكرها . لم تستطع أن تلتزم الصمت . وتسكت عن القول والمناقشة فى هذا المجتمع الكبير فقد قال لهن الرسول عليه السلام : « بايعننى على ألا تشركن بالله شيئا ولا تسرقن » قالت هند : والله إنى كنت أصبت من مال أبى سفيان الهنة بعد الهنة وما كنت أدرى . أكان ذلك علينا حلالا أم لا ـ فقال أبو سفيان : ـ وكان حاضرا ـ أما ما أصبت فيما مضى . فأنت منه فى حل ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعرف مكانها من النسوة وقال : وإنك لهند بنت عتبة ، فقالت نعم ، فاعف عما سلف عفا الله عنك ، ثم أكمل الرسول صلى الله عليه وسلم بيعته فقال : « ولا تزنين » فقالت هند يارسول الله : وهل تزنى الحرة ؟ قال : « ولا تقتلن أولادكن » فقالت : قد ربيناهم صغاراً حتى قتلتهم أنت وأصحابك ببدر كبارا . وهنا ضحك عمر حتى استغرق فى الضحك ، ثم قال عليه السلام : « ولا تعصيننى فى معروف » فقالت هند : والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفى أنفسنا أن نعصيك فى شىء فقال عليه السلام لعمر بايعهن على ذلك .

تلك هى مبايعة يوم الفتح ، وليس فيها عهد بين الرسول وبينهم على الهجرة من مكة إلى المدينة . بل الذى ثبت قوله صلى الله عليه وسلم « لاهجرة بعد الفتح . ولكن جهاد ونية : وإذا استنفرتم فانفروا » رواه الإمام أحمد وأبو داود والبخارى .

وأخرج البخارى عن عطاء بن أبى رباح قال : زرت عائشة مع عبيد بن عمير . فسألها عن الهجرة فقالت : « لاهجرة اليوم . وكان المؤمنون يفر أحدهم بدينه إلى الله عز وجل . وإلى رسوله مخافة أن يفتن عليه ، فأما اليوم ، فقد أظهر الله الإسلام . فالمؤمن يعبد ربه حيث شاء . ولكن جهاد ونية ..

ويستخلص من هذه الروايات أمران :

الأمر الأول : قول الرسول عليه السلام : لاهجرة بعد الفتح أى فتح مكة . وقول السيدة عائشة رضى الله عنها : لا هجرة اليوم .

الأمر الثانى : قول الرسول عليه السلام : مضت الهجرة لأهلها ، وقوله : ذهب أهل الهجرة بما فيها . .

فأما الأول . فإنه يفيد انقضاء حكم الهجرة من مكة إلى المدينة بعد ما فتحت مكة . وليس معنى هذا . أن الهجرة قد انقطعت وارتفعت ؛ بل تصير فى حكم الوجوب . إذا عرض لشخص مايقتضى هجرته من بلد إلى آخر وكان هذا العارض مقتضيا صحيحا شرعيا . فإنه يجب عليه الهجرة من غير شك . فإن من يكون بين أهل الحرب . ولا يستطيع أن يظهر بدينه بينهم . أو فى بلدة ظالم أهلها . ولا يأمن بينهم على نفسه أو عرضه . أو ماله . فالهجرة فى حقه . والحالة هذه واجبة .

أما الأمر الثانى : مضت الهجرة لأهلها ، وذهب أهل الهجرة بما فيها ، فإنه يدل على أن فضل الهجرة . وأجرها . وثوابها . انتهى بانتهاء الهجرة الخاصة من مكة إلى المدينة منذ الفتح . وإذا كان الأمر كذلك . فماذا يكون حال الهجرة التى عرضت عوارض تقتضيها مثل الظروف التى تنشأ للانسان مثلا .

والجواب : أن هذه الهجرة أيضا لها فضلها ، ولكنها على كل حال دون الهجرة الخاصة التى كانت على حياة الرسول عليه السلام والتى كان المقصود منها تقوية الرسول وتعضيده .

مبدأ التاريخ الإسلامى

لم يكن هناك فى عهد الرسول مبدأ للتاريخ الإسلامى . رغم الأحداث المختلفة التى تعتبر كل واحدة منها مبدأ للتاريخ الإسلامى .

ظل الأمر مدة من الزمن دون أن يكون هناك تحديد لمبدأ التاريخ . إلا فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه . بعد ست أو سبع عشرة سنة من الهجرة . لما أخذت تنتشر بين أفراد الأمة كتابة الوثائق . وغير الوثائق .

لقد رفع إلى عمر رضى الله عنه صك بدين لرجل على آخر قد كتب فيه : أن هذا الدين يحل فى شهر شعبان . فقال عمر : أى شعبان . . شعبان هذه السنة أم شعبان السنة التى قبلها . أم التى بعدها .

ثم جمع أهل الرأى لتقرير مبدأ معين يكون للتاريخ الإسلامى فمنهم من رأى أن السنة التى ولد فيها الرسول صلى الله عليه وسلم هى التى ينبغى أن تجعل مبدأ لهذا التاريخ .

ومنهم من رأى أن يكون المبدأ السنة التى بعث فيها عليه السلام . ثم استقر الرأى أخيراً على أن يؤرخوا بالسنة التى وقعت فيها الهجرة . وبذلك صار شهر المحرم من سنة الهجرة هو الشهر الأول من السنة الأولى من هذا التاريخ . .

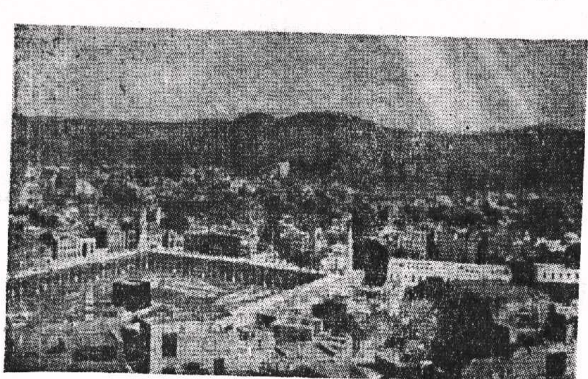
وهنا يقفز إلى الذهن سؤال . لماذا لم يجعلوا أول السنة الهجرية شهر ربيع الأول الذى كانت فيه الهجرة ؟

الواقع أن العرب قبل الإسلام كانوا يعرفون السنة القمرية وأنها اثنا عشر شهرا . وكانوا يسمون هذه الأشهر بأسمائها المعروفة . وكان أول السنة عندهم هو شهر المحرم . اختاروه كذلك . لأنه هو الشهر الذى يكون بعد انتهائهم من موسم الحج فلم يكن هناك داع إلى تغيير مبدأ السنة . إنما الحاجة هى تعيين السنة التى تكون مبدأ للتاريخ الإسلامى وقد تم الأمر على أنها سنة الهجرة .

بين مدينتين

لقد كانت مكة والمدينة المدينتان اللتان ظهرتا فى التاريخ الإسلامى بالنسبة لحادث الهجرة . ويجدر بنا أن نعرف شيئا عن المدينتين .

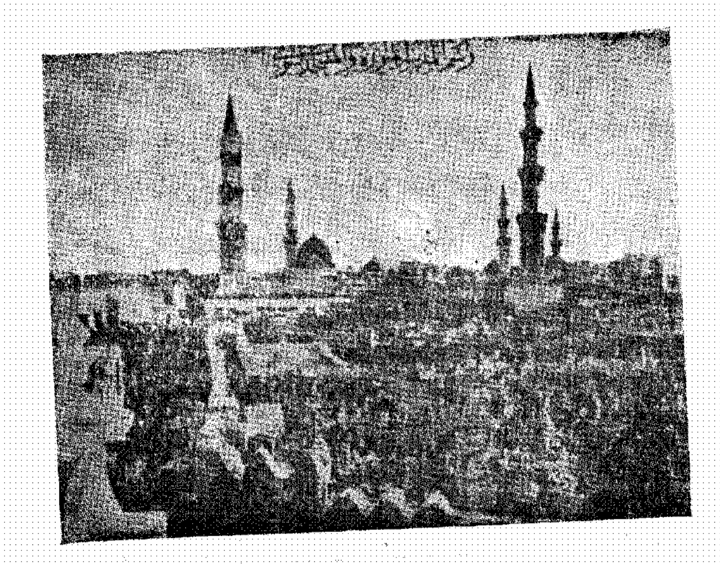
فمكة مثلا : هى من المدن الواقعة فى وسط الصحراء . ولا تكاد تشاهد مثلها فى غير جزيرة العرب . والماء فيها قليل . ويجلب إليها الماء بقنوات من ينابيع عرفة .



مَكَّةُ المُكَرَّمَة

ومكة فى موسم الحج أغنى مركز تجارى فى جزيرة العرب .

وكانت المدينة العاصمة الأولى للمسلمين فى عهدالرسول عليه السلام وخلفائه الراشدين من بعده . ومعقل الإسلام . وفيها قبر خير الأنام محمد عليه أفضل الصلاة ، وأزكى السلام وبعض العلماء فضلها على مكة ، لما لها من المنزلة الدينية . والمركز العظيم . وذلك بهجرة الرسول إليها . ولها خمسة أبواب . وبها العين الزرقاء . وتمتاز المدينة أيضا بوجود مقابر كثير من الصحابة وآل البيت . وأئمة الحديث والفقه . فهى إذن دار الايمان ومتبوأ الهدى والفرقان . والعاصمة الأولى للاسلام . هيأتها الأقدار لاعزاز دين الله . فحملت الرسالة . وجاهدت أقوى ما يكون الجهاد ..



هذه هى طيبة . التى حضنت دعوة الاسلام ، ولها تسعون اسماً نذكر أشهرها . وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى :

(١) الحبيبة : وذلك لحبه صلى الله عليه وسلم لها . ودعائه به .

(٢) حرم الرسول : لأنه الذى حرمها [لحديث] حرم إبراهيم مكة وحرمى المدينة

(٣) الدار : لقوله تعالى : والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولايجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون .

(٤) أرض الله : « لقوله تعالى « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » .

(٥) دار السنة ، دار الفتح ، دار الهجرة .

(٦) الدرع الحصينة . لقوله عليه السلام : « رأيت كأنى فى درع حصينة » .

(٧) سيدة البلدان : لما روى عن ابن عمر مرفوعا . ياطيبة ياسيدة البلدان .

(٨) قبة الاسلام : لحديث المدينة قبة الاسلام .

(٩) قرية الأنصار . وهم الأوس والخزرج .

وغير ذلك كثير . ويكفى هنا ما أوردناه مختصراً .

فضائلها : فالمدينة إذن علم على البلدة المعروفة . التى هاجر إليها النبى صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى : يقولون لئن رجعنا إلى المدينة . ليخرجن الأعز منها الأذل . .

فإذا أطلق الاسم . انصرف إليها أى إلى مدينة الرسول عليه السلام ففضائلها لا تحصى . . فهى موطن إعزاز دين الله لقد حرم النبى صلى الله عليه وسلم قطع شجرها . فقال « المدينة حرم من كذا إلى كذا — لا يقطع شجرها . ولا يحدث فيها حدث من أحدث فيها حدثا . فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه . أن النبى صلى الله عليه وسلم . قال « حرم ما بين لابتى المدينة على لسانى . قال . وأتى النبى صلى الله عليه وسلم بنى حارثة فقال . أراكم يابنى حارثة . قد خرجتم من الحرم ثم التفت فقال . بل أنتم فيه » .

وعن على رضى الله عنه قال : ما عندنا شىء إلا كتاب الله . وهذه الصحيفة . عن النبى صلى الله عليه وسلم « المدينة حرام ما بين عائر إلى كذا . من أحدث فيها حدثا أو آوى محدثا فعليه لعنة الله . والملائكة والناس أجمعين . لا يقبل منه صرف . ولا عدل وقال ذمة المسلمين واحدة . فمن ضار مسلما فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . لا يقبل منه صرف ولا عدل . ومن تولى قوما بغير إذن مواليه . فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل » .

حب الرسول ﷺ للأنصار

الأنصار . هم الذين نصروا الرسول ودعوته . والحديث عن الأنصار هو الحديث عن قلب الإسلام الخفاق . وروحه الوثاب . هو الحديث عن اعتلاء شأن الإسلام . وعزة المسلمين . ورفعة الدين فى نفوس العرب . والأمم كافة .

أو ليس الأنصار هم الذين يقول قائلهم : يامعشر الخزرج علام تبايعون هذا الرجل؟ إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس . فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة . وأشرافكم قتلا ـ اسلمتموه ـ فمن الآن فدعوه فهو والله إن فعلتم ـ خزى الدنيا والآخرة . . وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال . وقتل الأشراف فخذوه . فهو والله خير الدنيا والآخرة .

فيجيب القوم بقوة عزيمة . ومضاء إرادة : إنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف . فمالنا يارسول الله إن نحن وفينا بذلك . ليرد عليهم الرسول قائلا (الجنة)

أو ليس الأنصار هم الذين خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة بدر ولم يكونوا بايعوه على القتال خارج مدينتهم . فيستشير الرسول عليه السلام الناس فى أمره . ويخبرهم بما بلغه من أمر قريش فيدلى أبو بكر وعمر برأيهما . فيعرض عنهما الرسول عليه السلام . ثم يقول : أشيروا على أيها الناس ـ يريد بكلمته الأنصار ـ فلما أحس الأنصار أنه يريدهم ـ وكان سعد بن معاذ سيدهم وصاحب رايتهم ـ التفت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقال . والله لكأنك تريدنا يارسول الله ؟ قال : أجل ، قال سعد : لقد آمنا بك وصدقناك . وشهدنا أن ما جئت به هو الحق . وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة . فامض لما أردت . فنحن معك فوالذى بعثك بالحق . لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك . وما تخلف منا رجل واحد . وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً انا لصبر فى الحرب . صدق فى اللقاء . لعل الله يريك منا ما تقر به عينك . فسر على بركة الله . واستمد العون من الله ..

ولم يكد سعد يتم كلامه حتى أشرق وجه الرسول بالمسرة . وبدا عليه البشر وقال : « سيروا وأبشروا . فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين . والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم » .

هذه الصحائف الساطعة فى صدر التاريخ الإسلامى . وهذا الانقلاب التاريخى فى حياة الأمة العربية . وهذا الاتجاه الجديد فى حياة الإنسانية . . إنما يدل ذلك كله على تأييد الأنصار للدعوة والدفاع عنها بعزم وصدق وجلاد .

أولئك الذين نصروا الله فى دينه . ونصروا رسوله فى دعوته سماهم الله بأشرف الأسماء . وأنعم عليهم بأنبل الألقاب . تخليداً لبطولتهم . وإشادة بفضل أعمالهم . .

لله تلك القلوب الطاهرة . والنفوس الماضية . ولله تلك العزائم الصوارم . التى ثبتت أمجاد الإسلام شامخة . وأرست قواعد بنيانه راسخة .

أحب الأنصارُ الإسلام من كل قلوبهم . فنصروه نصراً مؤزراً جعل الرسول حبهم آية الإيمان . فقال « لو سلكت الأنصار وادياً ـ لسلكت وادى الأنصار . ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار آخى بينهم الرسول وبين المهاجرين . فقاسموهم أموالهم . وسمحت لهم أنفسهم بالنزول عن بعض زوجاتهم . فمدحهم الله . وأثنى عليهم بقوله « والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم . يحبون من هاجر إليهم . ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا . ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » . .

قالت عائشة رضى الله عنها . نعم النساء ـ نساء الأنصار . لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين .

روى أن الأنصار . اشتدت بهم السوانى . فأتوا النبى صلى الله عليه وسلم . ليدعو لهم . او يحفر لهم نهراً . فأخبر النبى عليه السلام بذلك . فقال « لاتسألونى اليوم عن شيء إلا أعطيتم » فلما سمعوا ماقال الرسول . قالوا : ادع لنا الله بالمغفرة .

قال « اللهم اغفر للأنصار . ولأبناء الأنصار . ولأبناء أبناء الأنصار » .

تلك هى منزلة الأنصار فى نفس الرسول عليه السلام وفى قلبه . حب خالص لله . ووفاء صادق ماعاش الرسول وعاشت الأنصـار ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال :

كانت الأنصار يوم الخندق تقول .

نحن الذين بايعـوا محمـدأ على الجهـاد ماحيينـا أبدأ

فأجابهم : اللهم لاعيش إلا عيش الآخرة . فأكرم الأنصار والمهاجرة .

أثره عليه السلام فى التاريخ

كان لظهور الرسول عليه السلام أثر بالغ فى حياة الأمم . فلقد كانت البشرية تحت نير الظلم والتعسف . وكانت الفوضى تشمل كل مرافق الحياة من النواحى السياسية والدينية . والاجتماعية . والاقتصادية .

١ — فلقد كانت السياسة محتكرة فى قصور القياصرة . والأكاسرة . ولم يستطع الشعب أن يرى نور الحياة الحرة التى يضمنها لهم قانونهم — لو فرض وجوده وكان عادلا — بل كانوا كالسوائم فى جميع تصرفاتهم . وكان محظوراً على الشعوب فى الفرس — والروم — وجميع الأمم التى كانت تدعى لنفسها الحضارة . أن يشتغلوا بالسياسة . أو يتحدثوا أو يخوضوا فى غمارها . لأن السياسة من مسائل السيادة التى لا يباشرها إلا الرئيس أو الحاكم . فجاء الرسول عليه السلام . وجعل الأمر شورى بين الناس . ومحا كل معالم الفردية الطاغية . والسلطان الأعمى وأعطى للفرد من الشعب حق المجادلة فى قانون خاطىء أو وضع زائف . .

٢ — وأما من الناحية الدينية : فلقد لوثت الكنيسة العقائد . ووضعت المبادىء التى تكفل لها السيطرة على العقول . لتحتفظ لنفسها بحق السيادة والهيبة . وكانت تلك المبادىء بمثابة قوانين . يتقبلها الفرد تعبدا . ويأخذها أمراً مسلما . إن طوعا . وإن كرها . فجاء الإسلام . وحمل بين كلتا يديه دينا جديداً . هو دين العقل قبل أن يكون دين العمل . ودين الفكر والتأمل قبل أن يكون دين خضوع لسلطة قوية عليا .. وضع المبادىء على أساس حرية الفرد والجماعة . وضمن للإنسان حريته وكرامته فى الحياة قال تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم » .

فرق إذن بين ديانتين . ديانة وضعية . وضعتها أهواء وأغراض تلوثت بكل ما فى الحياة من مظاهر القوة والسيطرة وبين ديانة سماوية خالدة تضمن للحاكم والمحكوم حريته فى ظلها .

٣ - ومن الناحية الاجتماعية : كان الفرد تائها فى مجتمع لم يعرف له قانون . ولم يحفظ له ودا ولا حياة . فكان نظام الطبقات . هو دين الأمة وقانونها . فأهمل فى ظله الفقير والضعيف فجاء الإسلام . ليرفع الناس من تلك الهوة السحيقة إلى مراتب العز والكرامة . فأعطى للرجل حقوقا . وللمرأة نصيبا فى الحياة . تكفل الإسلام بكل فرد يدب على ظهر الوجود ووضع من القوانين . والنظم . ما جعل الناس يطمئنون فى دنياهم قال تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ويقول الرسول عليه السلام فى خطبة الوداع « يا أيها الناس . إن ربكم واحد وإن أباكم واحد . كلكم لآدم . وآدم من تراب . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . وليس لعربى فضل على عجمى . ولا لعجمى فضل على عربى ولا لأحمر على أبيض . ولا لأبيض على أحمر . فضل إلا بالتقوى ألاهل بلغت . اللهم فاشهد . ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب» ويقول عمر رضى الله عنه فى وصيته لسعد بن أبى وقاص « إن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته . فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء ويقول فى وصيته للخليفة من بعده « اجعل الناس عندك سواء . لا تبال على من وجب عليه الحق . ثم لا تأخذك فى الله لومة لائم . وإياك والأثرة . والمحاباة . فيما ولاك الله .

وشكا يهودى على بن أبى طالب إلى عمر رضى الله عنه فى خلافته فلما مثلا بين يديه نظر إلى على وقال له « اجلس يا أبا الحسن . فظهرت آثار الغضب على وجه على . فقال له عمر ما معناه « أكرهت أن يكون خصمك يهوديا . وأن تمثل أمام القضاة فقال على : لا . ولكننى غضبت لأنك لم تسو بينى وبينه . إذ خاطبتنى بكنيتى فقلت يا أبا الحسن ـ وكان الخطاب بالكنية فى عرفهم أسلوبا من أساليب التعظيم » ـ وحدث مرة أن ولداً لعمرو بن العاص ضرب رجلا من دهماء القوم من المصريين . ظلماً فى عهد ولاية أبيه على مصر ، فأقسم المجنى عليه ليشكونه إلى عمر أمير المؤمنين فقال له : اذهب فلن ينالنى ضرر من شكواك ، فأنا ابن الأكرمين وبينما كان الخليفة مع خاصته ، وعمرو بن العاص وابنه فى موسم الحج ـ قدم هذا الرجل عليهم ، وقال مخاطبا عمر « يا أمير المؤمنين إن هذا ـ وأشار إلى ابن عمرو ـ ضربنى ظلما وقال أنا ابن الأكرمين فنظر عمر إلى عمرو ـ وقال له : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ، ثم توجه إلى الشاكى وناوله

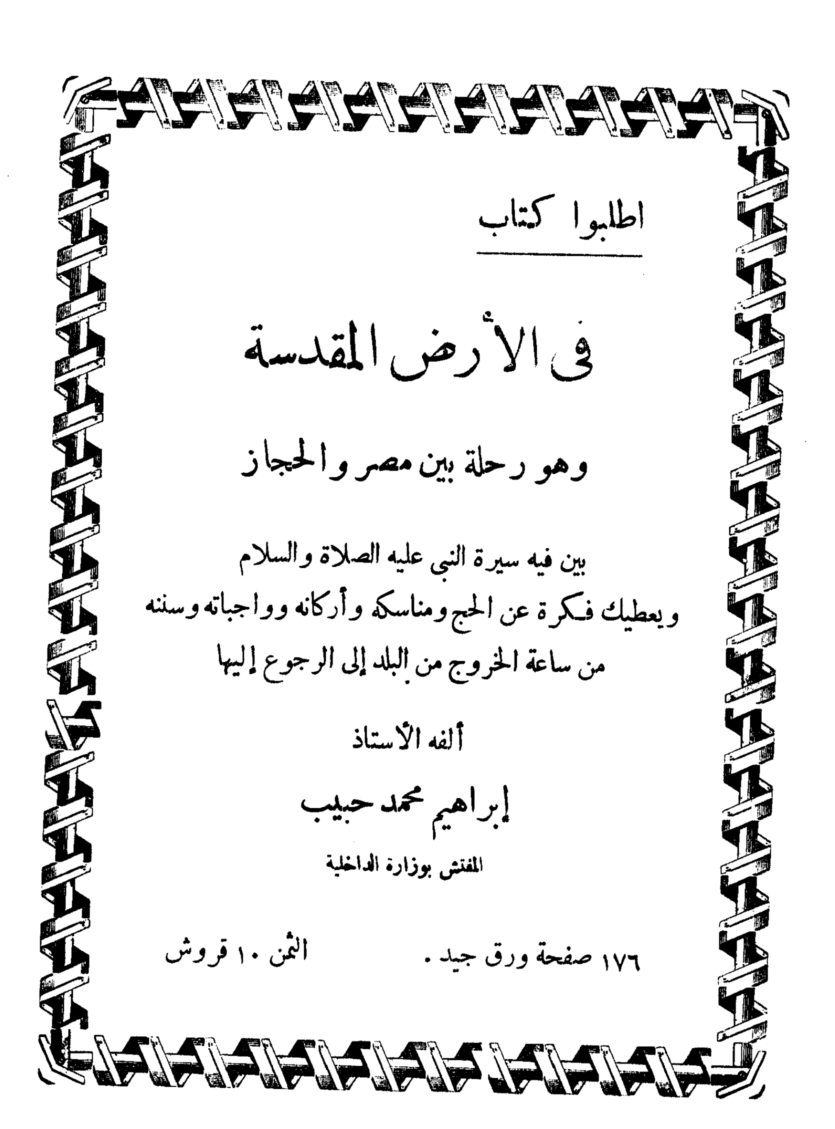
درته . وقال له : اضرب بها ابن الأكرمين كما ضربك .

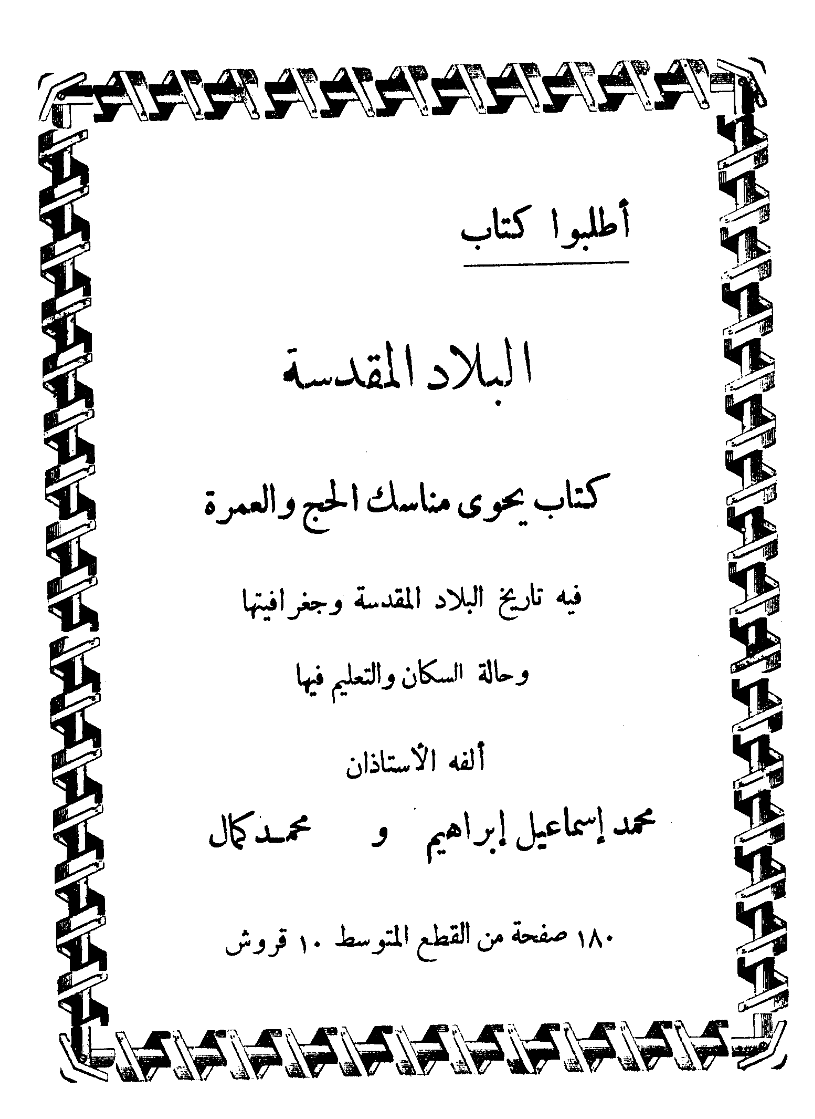
٤ ـ وأما من الناحية الاقتصادية : فقد جاء الإسلام ليحقق أكبر قدر ممكن من المساواة فى الحياة الاقتصادية ، ففرض الضرائب على الأغنياء . وصرف مايجبى منها لسد حاجات الفقراء ، والإنفاق على المرافق العامة ـ وفرض الخراج على العقارات وفرض العشر أو نصف العشر على ما تنتجه الأرض . وفرض الزكاة على جميع مظاهر الثروة الأخرى . وعروض التجارة ...

وهكذا جاء الإسلام يزحف بنوره على الكون . ليضىء معالم الحياة فى جميع جوانبها ، وهيأ للبشرية جوا هادئا ، يعيشون فى رحابه ، مما أتاح الفرصة لكل كائن حى من البشر أن يطمئن على آدميته وكرامته وحقه فى هذا العالم ..؟

••••••••

فهرست


اطلبوا كتاب
فى الأرض المقدسة
وهو رحلة بين مصر والحجاز
بين فيه سيرة النبي عليه الصلاة والسلام
ويعطيك فكرة عن الحج ومناسكه وأركانه وواجباته وسننه
من ساعة الخروج من البلد إلى الرجوع إليها
ألفه الأستاذ
إبراهيم محمد حبيب
المفتش بوزارة الداخلية
١٧٦ صفحة ورق جيد .
الثمن ١٠ قروش


أطلبوا كتاب
البلاد المقدسة
كتاب يحوى مناسك الحج والعمرة
فيه تاريخ البلاد المقدسة وجغرافيتها
وحالة السكان والتعليم فيها
ألفه الأستاذان
محمد إسماعيل إبراهيم و محمد كمال
١٨٠ صفحة من القطع المتوسط ١٠ قروش